# استفد من أحزانك

تأليف

ب. بلهايمر

تعريب

ش. أ.
عمر المهدي

# استفد من أحزانك

ترجمة موجزة لكتاب

Don't Waste Your Sorows

Paul Billheimer

© حقوق الطبع والنشر محفوظة
دار الكتاب الشريف
2013

ISBN 978-1-61364-126-2

يُطلب من:
Pry4Ms@SharifBible.com

الآيات الكتابية مأخوذة من الكتاب الشريف طبعة 2013
www.SharifBible.com

# فهرس


مقدمة ..... 5
1 – الحزن ثمن الجلال ..... 11
2 – أكبر متألم في الكون ..... 16
3 – المحبة أسمى قانون في الكون ..... 20
4 – الحرية الشرعية ..... 24
5 – سر الألم ..... 29
6 – إيمان أعظم من إيمان ..... 36
7 – مهمة الحياة الكبرى – تعلم المحبة المضحية (1) ..... 42
8 – مهمة الحياة الكبرى – تعلم المحبة المضحية (2) ..... 48
9 – المحبة المضحية من خلال الأسرة ..... 56
10 – المحبة من خلال معاناة جائرة ..... 63
11 – المحبة المضحية من خلال إخفاقات الحياة ..... 69
12 – الحياة المضحية عبر الشيخوخة ..... 75

# رُموز أسْمَاء كُتبُ الوَحيِ

| | |
|---|---|
| 1أخ | أخبار الأيام الأول |
| 2أخ | أخبار الأيام الثاني |
| إر | إرميا |
| إس | إستير |
| إش | إشعيا |
| أع | أعمال الرسل |
| أف | الرسالة من بولس إلى المؤمنين في أفاسس |
| أم | الأمثال |
| أي | أيوب |
| 1بط | الرسالة الأولى من بطرس |
| 2بط | الرسالة الثانية من بطرس |
| تث | التثنية |
| 1تس | الرسالة الأولى من بولس إلى المؤمنين في تسالونكي |
| 2تس | الرسالة الثانية من بولس إلى المؤمنين في تسالونكي |
| تك | التكوين |
| 1تم | الرسالة الأولى من بولس إلى تيموتاوس |
| 2تم | الرسالة الثانية من بولس إلى تيموتاوس |
| تي | الرسالة من بولس إلى تيتوس |
| جا | الجامعة |
| حب | حبقوق |
| حج | حجي |
| حز | حزقيال |
| خر | الخروج |
| دا | دانيال |
| را | راعوث |
| رو | الرسالة من بولس إلى المؤمنين في روما |
| رؤ | الرؤيا |
| زك | زكريا |
| صف | صفنيا |
| 1صم | صموئيل الأول |
| 2صم | صموئيل الثاني |
| عا | عاموس |
| عب | الرسالة إلى العبرانيين |
| عد | العدد |
| عز | عزرا |
| عو | عوبديا |
| غل | الرسالة من بولس إلى المؤمنين في غلاطية |
| فل | الرسالة من بولس إلى فلمون |
| في | الرسالة من بولس إلى المؤمنين في فيلبي |
| قض | القضاة |
| كو | الرسالة من بولس إلى المؤمنين في كولوسي |
| 1كور | الرسالة الأولى من بولس إلى المؤمنين في كورنتس |
| 2كور | الرسالة الثانية من بولس إلى المؤمنين في كورنتس |
| لو | لوقا |
| مت | متى |
| مر | مرقس |
| مرا | مراثي إرميا |
| مز | المزامير |
| 1مل | الملوك الأول |
| 2مل | الملوك الثاني |
| ملا | ملاخي |
| مي | ميخا |
| نا | ناحوم |
| نح | نحميا |
| نش | نشيد الأناشيد |
| هو | هوشع |
| لا | اللاويين |
| يش | يشوع |
| يع | الرسالة من يعقوب |
| يه | الرسالة من يهوذا |
| 1يو | الرسالة الأولى من يوحنا |
| 2يو | الرسالة الثانية من يوحنا |
| 3يو | الرسالة الثالثة من يوحنا |
| يو | يوحنا |
| يون | يونس |
| يؤ | يوئيل |

# مقدمة

تؤكد فئات متعددة في يومنا هذا على أن الحياة الروحية المثالية هي حياة متواصلة الفرح والسلام والازدهار المادي. والإنطباع السائد لدى تلك الفئات أن النجاة والإمتلاء بالروح يؤديان إلى حياة حلوة، خالية من المتاعب، فيها تُحلّ جميع المشاكل تلقائيًا وتحدث المعجزات بلا انقطاع.

في رأي البعض أن المرء الذي لا يختبر ظواهر خارقة للطبيعة باستمرار، هو متخلف روحيًا، وأن شيئًا ما على خطأ بينه وبين الله. إن الحياة المملوءة بالروح، بالنسبة لهؤلاء هي نزهة ولهو حافلان بالجذل والطرب، لا أحد فيها يعاني من مرض أبدًا، وإذا هو مرض فيتحتم أن يشفى فورًا بإيمان بسيط لا جهد فيه. وإن هو احتاج إلى مال فما عليه إلا أن يطلبه من الله، وستفتح السماوات أبوابها وتصبّ عليه المال صبًا.

قد يبدو هذا الوصف مبالغًا فيه؛ لكنه يوضح هذه النظرة أو الفلسفة الدينية المعينة؛ ونحن لا ننكر وجود مقدار كبير من الصحة فيها. والقلائل منا يحيون وفق الامتيازات الروحية التي أنعم الله بها علينا. وهو تعالى يحبّ أن يبيّن كرمه وقوته الصانعة للمعجزات، على نحوٍ أبعد بكثير مما نراه عادةً. لكن السؤال هنا هو: هل هذه الفلسفة هي في توازن وتناسب روحيين صحيحين، أم أنها تمثل جانبًا واحدًا من الصورة؟

يتمثل الوجه الآخر لمفهوم الحياة في الإيمان بأنها نضال يتطلب الشجاعة والتضحية وضبطًا قويًا للنفس. وتشدّد هذه العقيدة على التعب الذي لا يمكن تفاديه، وعلى الكدح، والألم الذي نواجهه أحيانًا، وكذلك على مرارة الصراع، والأيام اليائسة والليالي المرهقة بالظلمة والغم. ونجد توضيحًا لهذه العقيدة في الآيات الكريمة التالية: «اِحْتَمِلْ نَصِيبَكَ مِنَ الآلام كَجُنْدِيٍّ مُخْلِصٍ لِلْمَسِيحِ عِيسَى،»[1] «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتْبَعَنِي، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْ ذَاتِهِ، وَيَحْمِلَ صَلِيبَهُ كُلَّ يَوْمٍ وَيَتْبَعَنِي،»[2] « فَنَظَرَ إِلَيْهِ عِيسَى بِمَحَبَّةٍ وَقَالَ لَهُ: «يَنْقُصُكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ: اِذْهَبْ وَبِعْ كُلَّ مَا عِنْدَكَ، وَوَزِّعْ ثَمَنَهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ تَعَالَ اتْبَعْنِي،»[3] «أَمَّا أَنَا، فَإِنِّي لا وَلَنْ أَفْتَخِرَ بِشَيْءٍ إِلا بِصَلِيبِ سَيِّدِنَا عِيسَى الْمَسِيحِ.»[4]

ويتمثل هذا الوجه الآخر أيضًا بجيش نبيل من الشهداء الذين أصبح دمهم بذرة لجماعة المؤمنين بعيسى. كذلك عبّر عنه إنتاج أدبي غزير يشيد بشجاعة المؤمنين الفائقة وبسالتهم الفذّة وإنكارهم للذات، وبالثمن الغالي لممارستهم ضبط النفس. وما أعظم الاختلاف بين الأغاني المعاصرة وبين الأغنية التالية:

يمضي ابن الله إلى الأمام،
إلى الحرب،
ليظفر بتاج ملكي،
ويتدفق دمه

1) 2تم 2: 3
2) لو 9: 23
3) مر 10: 21
4) غل 6: 14

مثل راية حمراء تنادي:
من سينضم إلى موكبه؟
فالذي يشرب كأس بلائه،
ينتصر على الألم،
الذي يحمل الصليب صابرًا،
سينضم إلى موكبه.

عبرّت كاتبة مؤمنة عن المثل الأعلى في هذه الحرب الروحية وهي طريحة فراش المرض، في «دعاء الجندي»:

أدعوك اللهم أن تحميني
من الرياح التي تعصف بي
من الخضوع للخوف حينما يجب أن أُحلّق،
من التعثر عندما ينبغي أن أرتفع،
حرِّرني، يا قائدي من أغلال نفسي،
اجعلني جنديك الذي يتبعك.
من محبتي لِمَا هو سهل ومُتاح!
من اختيار ما يُبعدني عنك،
ليست كذلك النفس المحصّنة،
ولا ذاك طريق الجندي الشجاع،
حرِّرْني، يا حمل الله،
من كل ما يحيط صليبك بالظلام.
أعطني المحبة التي تقود على الطريق،

الإيمان الذي لا شيء يرعبه،
الأمل الذي لا تضنيه الخيبات،
والعاطفة التي تتقد كالنار.

وقال آخر إن الروح القدوس الذي يوجّه حياة المؤمن سوف يدفع به إلى حياة تضحية فيها المعاناة، تمامًا كما فعل بحياة عيسى. وفي كتاب يدعى «ماذا عنا نحن الذين لم نحصل على الشفاء؟» تُعبّر مؤلفته، وهي سيدة مؤمنة بالمسيح، عن الشكوك والمخاوف والحيرة لدى كثير من المؤمنين الذين، من دون سبب واضح، ينشدون الشفاء ولكن بلا نجاح، ويعانون الألم والمرض ولا يعرفون لماذا.

وهنا يبدر السؤال: هل الحياة المكونة من سلام وفرح وازدهار دائمين، حياة العافية والسعادة والنجاح في الغنى، هل هذه الحياة تتفوق روحيًا؟ وهل هي التي تجلب أوفر الجلال لله؟ هل يعتبر الذين عجزوا عن بلوغ هذا المثال مواطنين من الدرجة الثانية في ملك الله؟ هل ينبغي عليهم أن يقبلوا بمرتبة أدنى بين أبناء الله؟

يبتهج المرء بدرجة الإيمان الذي يتولد في النجاح والازدهار وفي الشفاء من الأمراض. ويدرك المرء أن معجزات الشفاء والاستجابات الأعجوبية للأدعية تمجد ربنا العلي وانتصاره على العدو. وإن إظهار القدرة الخارقة للطبيعة في عجائب ومعجزات هو أمر يستند إلى الإنجيل الشريف،[5] وهو يدحض الكفر ويثير الإيمان في قلب شعب الله، ويقود نفوسًا كثيرة إلى المولى إلهنا.

5) 2كور 12: 12

لكن كيف يمكن تفسير الإخفاق الظاهر؟ قليلون يحصلون على الشفاء، وكثيرون يعانون المرض! قليلون هم من حصلوا على أجوبة معجزية لدعائهم من أجل الشفاء والرخاء، بيد أن الغالبية لم تحصل. هل على كل هؤلاء الذين هم من فئة الأكثرية أن يكفّوا عن السعي ويتمرغوا في الهزيمة ورثاء للنفس؟ هل لنا أن نستنتج أن جماهير المؤمنين الذين لم ينالوا الشفاء و لم يُنقَذوا من فقر طاحن، يتحتم عليهم أن يعتبروا أنفسهم مواطنين من الدرجة الثانية في مملكة الله؟ هل ينبغي على الذي لم يحصل على الشفاء أن يعاني من عقدة نقص روحية، ومن خيبة أمل تبعث فيه الشك في أنه لن يحصل إلا على أفضلية ثانية لدى الله بينما أقلية مختارة قد مُنحت الشفاء وبُوركت بالثراء، تتحول إلى «القلائل الذين اصطفاهم الله»؟

أم أنه ممكن لتلك الأكثرية التي تظل محدودة ماليًا ومبتلاة جسمانيًا، أن تساهم بنصيب كبير في مُلك الله، وتجلب فرحًا شديدًا إلى قلبه عز وجل، وتربح مكافأة أبدية، كما سيحدث لأولئك الذين مَنَّ الله عليهم فأُنقذوا بطريقة غير عادية هنا والآن؟

هل يمكننا أن نتصور أن الرد على هذا السؤال يكون بالإيجاب؟ يقول الرسول: «لأَنَّ الضِّيقَ الَّذِي نُوَاجِهُهُ هُوَ بَسِيطٌ وَمُؤَقَّتٌ، لَكِنَّهُ يُهَيِّئُ لَنَا جَلالا أَبَدِيًّا عَظِيمًا يَفُوقُهُ. إِذَنْ نَحْنُ لا نَنْظُرُ إِلَى الأُمُورِ الَّتِي نَرَاهَا، بَلْ إِلَى الأُمُورِ الَّتِي لا نَرَاهَا. لأَنَّ الَّذِي نَرَاهُ مُؤَقَّتٌ، أَمَّا الَّذِي لا نَرَاهُ فَأَبَدِيٌّ.»[6]

ما لا نراه، إنما نتوقعه بثقة هو الحقيقة السامية النهائية. أما الحاضر بما فيه من أمور نراها ونلمسها فهو نسبي وسريع الزوال. هذا الإيمان يؤكد أن حزن المؤمن بعيسى يعمل لصالحه!

6) 2كور 4: 17–18

# 1
# الحزن ثمن الجلال

لكي نفهم هذه الآية الأخيرة،[7] لا بد لنا أن نحدّد المقصود بكلمة «ضيق.» من المحتمل أن الرسول بولس كان هنا يفكر خاصةً في الاضطهاد والمعارضة والحرمان والشدة التي واجهها هو والمؤمنون الأوائل بالمسيح عيسى، في عباداتهم وفي جهادهم لنشر وتعزيز رسالة الإنجيل الشريف. ويسرد الرسول لنا قائمة تحوي امتحانات قاسية نجمت عنها آلامٌ جسمانية وربما ضرر دائم.[8]

إن الكلمة اليونانية الأصلية التي تُرجمت «ضيق»، تعني ببساطة وطأةً أو ضغطًا. ويعرّفها القاموس بأنها «أي شيء يسبّب ألمًا وأسى.» وهذا يشمل الحزن والغم والألم والعناء وما إلى ذلك.

بعض المؤمنين يستنتجون أن الله قد يستخدم أصنافًا أخرى من البلاء ليعاقب صالحا ارتكب خطيئة أو وقع في زلة، أو ليؤدب من يحتاج إلى مزيد من التدريب والإعداد. لكنه تعالى لا يستخدم المرض الجسماني، لأن عيسى المسيح قد حَمَلَ

7) 2كور 4: 17
8) 2كور 11: 23–33

عنا أمراضنا ورفع أحزاننا على الصليب.[9] وهم يعتقدون؛ لهذا السبب، أنه ليس من الضروري أن نقبل المرض كوسيلة تأديب. كما يصرون على أنه ما دام ثمن النجاة قد دُفع فيجب أن يستطيع المؤمن ممارسة إيمانه من أجل شفاء فوري من غير أن ينتظر أن يتعلَّم درسا جديدا في الصبر والاحتمال.

لكن هذا الإعتقاد يبدو مناقضًا لما فهمه بولس وعبّر عنه حين قال:

«فَيَجِبُ أَنْ يَخْتَبِرَ الْوَاحِدُ نَفْسَهُ ثُمَّ يَأْكُلَ مِنَ الْخُبْزِ وَيَشْرَبَ مِنَ الْكَأْسِ. لأَنَّ مَنْ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِغَيْرِ أَنْ يُرَاعِيَ جِسْمَ الْمَسِيحِ، فَهُوَ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ الْعِقَابَ عَلَى نَفْسِهِ. وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ أَنَّ كَثِيرِينَ مِنْكُمْ ضُعَفَاءُ وَمَرْضَى، وَكَثِيرِينَ مَاتُوا. أَمَّا إِنْ كُنَّا نَخْتَبِرُ أَنْفُسَنَا، فَإِنَّنَا نَتَجَنَّبُ الْعِقَابَ. لَكِنَّ اللهَ يُعَاقِبُنَا لِكَيْ نَتَأَدَّبَ فَلا يَحِلَّ عَلَيْنَا غَضَبُهُ الَّذِي يَحِلُّ عَلَى الْعَالَمِ.»[10]

يبدو هنا أن الله يستعمل بلاءً جسمانيًا لكَي يؤدب بعض المؤمنين. وإذا كان الأمر كذلك فمن المستحيل إذن أن نلغي المرض كوسيلة ربما يستخدمها الله ليوجه انتباه المؤمن إلى ناحية في حياته تستدعي التصحيح. وقد قال أحد المؤمنين، إن كل بلاء يأتي برسالة من قلب الله. وقال مؤمن آخر، إننا لن نتعلم أبدًا أي جديد عن الله إلا عن طريق المحنة. وكما قال النبي داود: «قَبْلَ مَا عَانَيْتُ الذُّلَّ (جسمانيًا) أَنَا ضَلَلْتُ، أَمَّا الآنَ فَأُطِيعُ كَلامَكَ.»[11] وقال أيضًا: «الذُّلُّ الَّذِي عَانَيْتُهُ كَانَ لِخَيْرِي، لأَنِّي تَعَلَّمْتُ فَرَائِضَكَ.»[12]

---

9) إش 53: 4
10) 1كور 11: 28–32
11) مز 119: 67
12) مز 119: 71

ولا ننسى أخيرًا أن أيوب كان مثلًا لاستخدام الله البلاء الجسماني كواسطة تأديب.

يظهر إذًا أنه مع أن عيسى قد أخذ عنا عيوبنا وحمل آلامنا، فإن الله يستعمل البلاء الجسدي ليؤدب أبناءه. لذلك ينبغي علينا ألا نلغي المرض والداء مما شمله بولس الرسول في «الضيق البسيط»، الذي قال أنه يهيء جلالًا أبديًا عظيمًا لابن الله المطيع له والواثق به تعالى.

وإذا نحن قبلنا هذا التأويل للضيق لأدركنا أن بولس قد قال إن «الضغط» الناشئ من أي سبب، بما في ذلك المعاناة والألم في الجسم، حتى ولو لم يتبعهما الشفاء، قد يعمل لصالحنا. وإذن فعلى المؤمن الذين يقاسي في الجسم ويخفق في الحصول على الشفاء، أن يكف عن العويل والنواح ورثاء النفس والكآبة؛ وبدلًا من ذلك يلجأ إلى سبيل يُحول فيه حزنه ومعاناته إلى جلال خالد. وهذا الكتاب هو محاولة لمساعدة من يعاني لعله يجد هذا السبيل.

## أهم مشاكل الحياة

إن الخطيئة هي أشد مشاكل الحياة خطورة، وتليها مشكلة الحزن! ولعلنا نلاحظ هنا أن كلمة «يُهيئ» تعني أيضًا في الأصل «يخلق أو يبدع.» إذن «الضيق البسيط» في الواقع يخلق لنا وينتج «جلالًا أبديًا» بنسبة أكبر بكثير من الألم والمعاناة. لذلك يجب أن نصون هذا الألم ونرعاه ونتعهده ولا نضيعه بالمقاومة أو بالعصيان.

ويُوضح بولس هذه الحقيقة الباهرة فيقول: «وَإِنِّي أَعْتَبِرُ أَنَّ آلامَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا هِيَ لا شَيْءَ بِالنِّسْبَةِ لِلْجَلالِ الَّذِي سَيُعْلِنُهُ اللهُ لَنَا.»[13] ويقول أيضًا:

13) رو 8: 18

«نَفْرَحُ حَتَّى فِي الضِّيقَاتِ، لأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ الضِّيقَ يُعَلِّمُنَا الصَّبْرَ، وَالصَّبْرُ يُؤَهِّلُنَا لِلانْتِصَارِ فِي الْمِحَنِ، وَالانْتِصَارُ يَبْعَثُ فِينَا الأَمَلَ، وَالأَمَلُ لا يَخِيبُ، لأَنَّ اللهَ أَفَاضَ مَحَبَّتَهُ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُّوسِ الَّذِي أَعْطَاهُ لَنَا.»[14]

يعتبر الكثيرون هذا التعليل مجرد تفكير غير واقعي. إنما كلامنا هنا، يقوم على منطق متين، وحقائق من كتاب الله، لذلك فهو يُبيّن أن ذلك المفهوم هو أكثر من مجرد رفع للمعنويات.

إن الحزن أو الألم هو مُشكلة للمؤمن. ومع أننا نعرف أنه نافع لنا، فنحن دائما نَوَدُّ ونحاول أن نتفاداه ونتهرب منه.

يقول الكتاب الكريم إن الحزن ليس مصادفةً وإنما هو منحة وعطية يجب أن نتعهدها، لأننا إن استلمناها كما ينبغي سوف تعزز مكانتنا الأبدية وسمعتنا الحسنة.

## الحزن عام

إن معاناة الألم والحزن في هذا العالم الذي سقط في الخطيئة تسري على الكل. ما من مهرب! ما من تحرر دائم! لا بالمكانة العالية، لا بالحياة الطاهرة، لا بالصحة الجيدة، ولا بالتعليم أو المال أو المعرفة!

يقول الكتاب إن: «الإِنْسَانَ يُخْلَقُ لِيَشْقَى، كَمَا أَنَّ الطُّيُورَ تُخْلَقُ لِتَطِيرَ.»[15] ويقول لنا ربنا المبارك: «سَتُعَانُونَ الضِّيقَ فِي الْعَالَمِ.»[16] ويتحدث بولس عن هذه الضيقات فيقول لنا: « أَنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ تَعْرِفُونَ أَنَّهَا مِنْ نَصِيبِنَا. لأَنَّنَا لَمَّا كُنَّا

14) رو 5: 3–5
15) أي 5: 7
16) يو 16: 33

عِنْدَكُمْ أَخْبَرْنَاكُمْ أَنَّنَا سَنُعَانِي الاضْطِهَادَ. وَحَدَثَ هَذَا بِالْفِعْلِ كَمَا تَعْلَمُونَ.»[17]
إذن تأتي المشقة إلى الجميع، إلى الصالح والطالح، إلى الفاضل والفاسق!

## المذنب يحزن

لا يدهشنا أن الحزن يملك المذنب، فالكتاب يقول: «الْوَيْلُ وَالْعَذَابُ لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ الشَّرَّ.»[18] ونحن نعلم أن الضيق والألم دائمًا يتبعان الشر والإثم. هذا قانون ثابت، فالإثم والحزن مترادفان، برغم أن المذنب قد يُخفق في فهم ذلك. «لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ الْمَوْتُ.»[19]

## لماذا يعاني الصالح؟

لكن لماذا يقاسي الإنسان الصالح؟ لِمَ لا يُشفى كل مؤمن ويكون شفاؤه فوريًا؟ لماذا لا يُحمل إلى السماوات على فراش من زهور الراحة؟ ولماذا يتحتم عليه أن يُقاتل ليفوز بالجائزة وأن يسير عبر بحار من الدم؟

يصعب على معظم الناس أن يفهموا لماذا يُصيب الأسى صالحا. هذا من ألغاز العصور. ولكن على الرغم من غموض الموضوع، نعلم أن الله محبة؛ وأنه تعالى يسمح بمعاناة المؤمن فقط لكي يتهيأ لهذا المؤمن جلال أبدي.[20] ما من أحدٍ أبدًا يُصبح صالحا من غير معاناة؛ لأن المعاناة، حين تُقبَل كما ينبغي، هي الطريق إلى الجلال.

---

17) 1تس 3: 3–4
18) رو 2: 9
19) رو 6: 23
20) 2كور 4: 17–18

# 2
# أكبر متألم في الكون

## اللّه تألم

ليس الناس هم وحدهم الذين يتألمون. يظن البعض أن الله الذي قضى بالعقاب على المعصية، إنما فعل ذلك استبدادًا وأنه ذاته جل وعلا لا يتأثر لا بالمعصية ولا بمرتكبها ولا بعقابها! يقوم هذا الظن على أن الله معزول كليةً، ومعفىً تمامًا من أوجاع العقوبات التي أوقعها على الخليقة الخاطئة. وتروج فكرة بأنه سبحانه وتعالى يقذف بصواعق غضبه التي تجلب حزنًا وحسرة على الناس، بينما هو في برج عاجي يعزله عنهم تمام العزلة، فلا يتأثر بما تحدثه هذه الصواعق من ألم ودمار.

لكن حقيقة الأمر ليست كذلك. قد يدهشك القول أن الإله السعيد أزلًا هو المتألم الأعظم في الكون. فمن الأزل، قبلما أوجد العالم بكلمته، قبل الملائكة، وقبلما خلق أول إنسان في الأرض ليُعَبِّرَ عن ذات الإله، توقع الله سقوط الإنسان ووضع خطة لفدائه. وعلم الله أنه لا يمكن إنجاز خطة الفداء من غير أن يتألم ويعاني هو، جل جلاله.

ولا يستطيع مخلوق أن يعبد إلهًا محميًا من الألم؛ لأن المحبة المضحية التي هي جوهر صفات الله، تكون آنئذ مفقودة.

لقد كان الحمَل المذبوح، عيسى المسيح، هو الذي نفّذ خطة الفداء الأزلية، هو الله الذي عانى وتألم كبشر. وكان هو الذي نُودي به مستحقًا للقوة والثروة والحكمة والعزة والإكرام والإجلال والحمد.[21]

## هدف اللّه: عائلة له

لقد كان هدف الله الأصلي من عملية الخلق أن تكون له عائلة، ليست مخلوقة فحسب بل ومولودة من جديد. لذلك يقول الوحي الكريم، «فَإِنَّهُ قَبْلَ مَا خَلَقَ الْعَالَمِينَ، اخْتَارَنَا بِواسِطَةِ الْمَسِيحِ لِنَكُونَ صَالِحِينَ وَبِلا عَيْبٍ فِي نَظَرِهِ. وَفِي مَحَبَّتِهِ قَرَّرَ مُقَدَّمًا أَنْ يَجْعَلَنَا أَبْنَاءَهُ بِوَاسِطَةِ عِيسَى الْمَسِيحِ.»[22] ويقول أيضا، «لأَنَّهُ عَرَفَهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَقَصَدَ لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَ ابْنِهِ فَيَكُونَ هُوَ الْبِكْرَ بَيْنَ اِخْوَةٍ كَثِيرِينَ.»[23]

## الغاية من العائلة

و لم يكن ذلك كل شيء. فلقد كان القصد من هذه العائلة إيجاد شريكة حياة للمسيح تُدعى عروسة الحمَل.[24] وفي تدبير الله تتلقى هذه العروسة تدريبًا يُعدّها لترتقي عرش الكون كشريكة ملكية مع العريس.[25]

لكن الله علم أنه لا يمكن الحصول على العروسة من غير أن يتألم سبحانه وتعالى ألمًا غير محدود. وعلم أيضًا أنه لا يمكن إعداد العروسة لدورها الملكي

21) رؤ 5: 12
22) أف 1: 4–5
23) رو 8: 29
24) رؤ 21: 9
25) رؤ 3: 21، 19: 7، 9

دون أن تتألم هي. وهذه الفكرة توضح لنا ما يقوله الرسول أننا «إِنْ ثَبَتْنَا فِيهِ نَمْلِكُ مَعَهُ.»[26]

لذا كان الألم ملازمًا لنا في هذا الكون. وما دامت تلك حقيقة، فلا بد أن المعاناة تؤدي خدمة قيّمة لا حصر لها. لا بد أن تكون ذات أهمية فائقة.

## الألم ضروري في تدبير اللّه

أراد الله محبة طوعية من عروسة المسيح المصطفاة. فحتّم على نفسه أن يمنح جنس العروسة، الجنس البشري، اختيارًا تضمّن إمكانية سقوط هذا الجنس. ومن هنا فإن الخطيئة تقتضي الفداء، والفداء يتطلب كفارة، والكفارة تستدعي الألم. إذن، منذ الأزل كان الألم لازمًا في تدبير الله.

## ثمن المحبة الطوعية

عرف الله منذ الأزل أنه ما كان ليصنع كفارة تامة عن المعصية من غير أن يختبر تعالى نفسه، اختبارًا عمليًا، ضرورة الألم الذي هو ضروري للعدالة الإلهية في مجابهة التعدي على قانون الكون الأخلاقي. لذلك وضع الله في خطته أن يأتي إلى الأرض في جسم بشري. ولهذا يقول الإنجيل الشريف عن الله الذي صار بشرا، «وَالْمَسِيحُ، فِي أَثْنَاءِ وُجُودِهِ كَإِنْسَانٍ هُنَا عَلَى الأَرْضِ، قَدَّمَ صَلَوَاتٍ وَتَضَرُّعَاتٍ بِصُرَاخٍ شَدِيدٍ وَدُمُوعٍ، إِلَى اللهِ الْقَادِرِ أَنْ يُنْقِذَهُ مِنَ الْمَوْتِ فَاسْتَجَابَ لَهُ لِتَقْوَاهُ. وَمَعَ أَنَّهُ الابْنُ، تَعَلَّمَ الطَّاعَةَ بِوَاسِطَةِ الأَلَمِ الَّذِي قَاسَاهُ. وَبَعْدَمَا أَكْمَلَ عَمَلَهُ، أَصْبَحَ قَادِرًا أَنْ يُعْطِيَ النَّجَاةَ الأَبَدِيَّةَ لِكُلِّ الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ.»[27]

---

26) 2تم 2: 12

27) عب 5: 7–9

لو لم يختبر عيسى المسيح، عمليًا وبنفسه، العقوبة الكاملة لخطيئة الجنس البشري، لكانت الكفارة عبارة عن عملية مسك حساب لا أكثر، ولَمَا تحققت العدالة الإلهية على الإطلاق. و لم يكن ممكنًا تجاهل معصية البشر، وإلا زالت هذه العدالة الإلهية. ففي القانون الكوني، يتحتم على أحد ما أن يؤدي عقوبة كل ذنب يقترفه الجنس البشري كله، ولقد أدى عيسى المسيح هذه العقوبة، فكان هو «حَمَلِ الْفِدَاءِ الْمَذْبُوحِ مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِينَ.»[28]

إن الألم متأصّل في هذا الكَون.

28) رؤ 13: 8

# 3
# المحبة أسمى قانون في الكون

## ثلاثة أنواع للمحبة

ماذا يُقصد بالكون الأخلاقي؟ إنه كون فيه المحبة هي القانون الأسمى، فبالمحبة يتحقق القانون ويكتمل. المحبة توفي بكل إلتزام نحو كل عاقل في الكون، أكان هو الله، أم الإنسان، أم الملائكة. وأعظم الصفات الأساسية لأي نظام أخلاقي هي المحبة المضحيّة؛ وهذه واحدة من ثلاثة أنواع للمحبة. النوعان الآخران هما: المحبة الجنسية (بين الجنسين الذكر والأنثى)، ومحبة الصداقة (بين إنسان وآخر).

المحبة الأسمى، المحبة المضحيّة، هي من صفات الله وحده، وتعني أنه جل جلاله يحب لأن محبته هي من طبيعته ملازمة لذاته، تصدر عنه عفويًا وتلقائيًا. إنها ليست محبة تُمنح لأن متلقيها يستحقها. فكما أن الشمس تشع نورها على أزهار الحديقة العطرة وعلى أكوام الروث ذات الرائحة الكريهة، على السواء، كذلك محبة الله تشمل الصالح والشرير معًا. «يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ وَيُمْطِرُ عَلَى الأَتْقِيَاءِ وَالظَّالِمِينَ؛»[29] «لأَنَّ اللهَ مَحَبَّةٌ.»[30] هو تعالى محبة

29) مت 5: 15
30) 1يو 4: 8

متجسّدة، المحبة هي جوهره عز وجل. ويفرد الوحي المبارك في كلمة الله فصلا بأكمله ليصف لنا المحبة المضحية.[31] هذه المحبة قبل كل شيء ليست عاطفة، بل شعور وديّ، خيّر، مضحٍّ، ومتجه نحو الغير.

## انتصار المحبة النهائي

الله محبة مضحية، لذلك يجب أن تكون المحبة هي المبدأ الوحيد الدائم والكامل القوة في هذا الكون؛ وإلا ما كان الله هو الله.

ولقد تحدى الشيطان هذا المبدأ، وخسر. هناك مؤلفات يكتبها الذين يعبدون الشيطان، فيها يُصَوِّرون إبليس منتصرًا على عيسى المسيح، الذي ضحى بنفسه ورضي أن يُصلب من أجل البشر جميعًا ليعبر عن محبة الله المضحية تعبيرًا كاملًا. لكن الإنجيل الشريف يؤكد لنا كيف سينتهي الصراع بين حَمَل الله وإبليس. سيُطرح الشيطان في نار جهنم إلى الأبد، وسيجلس حَمَلُ الفداء، عيسى المسيح، على عرش الكون حيث سيحكم إلى الأبد، ومعه عروسته من أتباعه المؤمنين. «لله الْحَمْدُ! مَلَكَ الْمَوْلَى إِلَهُنَا الْقَدِيرُ. فَلْنَفْرَحْ وَنَبْتَهِجْ وَنُعَظِّمْهُ، لأَنَّ عُرْسَ حَمَلِ الْفِدَاءِ حَانَ، وَعَرُوسَتَهُ هَيَّأَتْ نَفْسَهَا.»[32]

لقد انتصرت المحبة انتصارًا نهائيًا.

## الهدف من الحياة على الأرض

إن تعلّم المحبة المضحية، التي تجسدت في عيسى المسيح، هو الهدف الأسمى من الحياة على الأرض. وهذا بالذات هو معنى كل ما يسمح الله

31) 1كور 13
32) رؤ 19: 6–7

بوقوعه لأي من أبنائه. فاهتمام الله الأول في هذا الزمن هو تعليم من ينتمون إلى عروسة المسيح المصطفاة دروس المحبة المضحية لتهيئتهم للعرش. كل حادثة، من فرح وأسى، من نعمة أو نقمة، من مسرة أو ألم بلا استثناء، إنما يستخدمها الله من أجل إعداد العروسة المصطفاة وتنمية أعضائها المؤمنين في المحبة المضحية.

«فناداهم عيسى إليه وقال لهم: «أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ حُكَّامَ الشُّعُوبِ يَتَسَيَّدُونَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ عُظَمَاءَهُمْ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ. فَلا يَكُنْ هَذَا بَيْنَكُمْ، بَلْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ عَظِيمًا بَيْنَكُمْ، فَلْيَكُنْ خَادِمًا لَكُمْ. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الأَوَّلَ بَيْنَكُمْ، فَلْيَكُنْ عَبْدًا لَكُمْ. كَمَا أَنَّ الَّذِي صَارَ بَشَرًا جَاءَ لا لِيَكُونَ سَيِّدًا بَلْ خَادِمًا، وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنِ الْكَثِيرِينَ.»[33]

## المحبة تعاني

لا تقوم محبة بلا عطاء من الذات. وليس هنالك عطاء من الذات من غير ألم. إذن، لا وجود للمحبة بلا ألم. إن الألم أو المعاناة هو عنصر رئيسي من عناصر المحبة المضحية، وبالتالي من الكون الأخلاقي. حتى الله عز وجل لا يستطيع أن يحب من غير أن يدفع الثمن. إن كنت تظن أن الإله السعيد الأزلي لا يمكن له أن يقاسي، فتفكّر إذن كم عانى حين بذل ابنه لكي يموت على الصليب، كخاطئ وككفارة عن الذنوب. تفكر كم قاسى الأب لما أدار وجهه بعيدًا عن ابنه الطاهر البرئ الذي لم يأت إثمًا وإنما حَمَل الإثم ومات لأجلنا، «فَالْمَسِيحُ الَّذِي لَمْ يَرْتَكِبْ ذَنْبًا، صَارَ ضَحِيَّةً عَنْ ذُنُوبِنَا، لِكَيْ نَكُونَ مَقْبُولِينَ عِنْدَ اللهِ بِوَاسِطَتِهِ.[34]

33) مت 20: 25–28
34) 2كور 5: 21

## المحبة تتحمل طوعًا

قال بولس: «الْمَحَبَّةُ ...تَحْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ.»[35] هذا يعني أن المحبة يجب أن تحتمل بطواعية. والمحبة التي لا تقبل أن تتحمّل طوعًا هي خطأ في التسمية، لأن جوهر المحبة هو إلغاء مركزية النفس، أي إنكار الذات من أجل الغير. وليس ثمة إنكار للذات من دون الرضى الإختياري بتحمل ما قد ينتج عن ذلك. فالمحبة التي تحتمل هي حجر الزاوية في بناء الكون، لأنه من غير هذه المحبة لا وجود لإنكار الذات أو التخلص من مركزيتها، وبالتالي لا وجود للمحبة المضحية.

المرء الذي لم يعانِ و لم يتحمل أبدًا، هو امروٌ أناني تمامًا. والمُحسن الكريم بحق هو من كان عظيمًا في تحمله ومقاساته. وليس ثمة صالح إلا وتحمل وعانى.

35) 1كور 13: 4

# 4
# الحرية الشرعية!

## الحرية الشرعية عن طريق آلام المسيح

حين بذل عيسى المسيح نفسة ليُكفِّر عن ذنوبنا، لم يكن ذلك بلا ألم، بل تحمل كل نتائج وثمار خطايانا ومعاصيتا في ذات شخصه وكينونته. لهذا لا يكابد أي إنسان ألمًا أو حزنًا أو خيبة أمل، لم يكن المسيح قد اختبرها كلها بنفسه.

تحدث النبي إشعيا قبل مجيء المسيح بمئات السنين فقال عنه: «حَمَلَ أَمْرَاضَنَا وَرَفَعَ أَحْزَانَنَا. وَنَحْنُ كُنَّا نَظُنُّ أَنَّ اللهَ ضَرَبَهُ وَأَذَلَّهُ عِقَابًا لَهُ. لَكِنَّهُ جُرِحَ بِسَبَبِ مَعَاصِينَا، سُحِقَ بِسَبَبِ آثَامِنَا، نَزَلَ عَلَيْهِ التَّأْدِيبُ لِنَحْصُلَ نَحْنُ عَلَى السَّلامِ، وَبِجُرُوحِهِ شُفِينَا. كُلُّنَا ضَلَلْنَا كَغَنَمٍ، انْحَرَفْنَا كُلٌّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ، وَاللهُ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَنَا كُلِّنَا.»[36] وأشار متى إلى هذا، لمَّا ذكر كيف أن عيسى شفى الكثيرين فقال، «وَبِذَلِكَ تَمَّ قَوْلُ النَّبِيِّ إِشَعْيَا: 'حَمَلَ أَمْرَاضَنَا وَأَزَالَ أَسْقَامَنَا'.»[37]

أخذ عيسى المسيح كامل العقوبة وكل الأحزان والمعاناة والألم والفقر والمرض، وجميع نتائج الآثام التي تراكمت على جنس آدم.

36) إش 53: 4–6
37) مت 8: 17

ماذا يعني كل هذا للمؤمن الذي يقاسي ويتألم ويتحمل؟ إنه يعني أن كل مؤمن مولود من جديد قد حُرّر شرعيًا من كامل العقوبة، من جميع الثمار المرة للخطيئة والسقوط. لا يمكن فرض هذه العقوبة مرة ثانية. قال النبي «بجروحه شُفينا.» وإذا كان الأمر كذلك، فإن كل مؤمن هو محرّر شرعيًا من كل المرض والداء والألم والحزن والفقر ومن سائر أنواع القيود.

## ما هي الحرية الشرعية؟

بسبب سقوط آدم أصبحت ذريته في عبودية ذليلة لإبليس. وإبليس وضع الموت كسلطان عليهم. لكن عيسى المسيح كان قد وُلد من العذراء مريم من غير أب بشري. فهو ليس مجرد ابن لآدم كباقي البشر. ولذلك لم يكن لإبليس حق شرعي في أن يلمسه.

في العصور التي سبقت مجيء المسيح قتل الشيطان الملايين من أبناء آدم، وأفلت من العقاب. بَيْد أنه لأول مرة في التاريخ، صار إبليس قاتلًا، شرعًا، حينما سَمَّر المسيح عيسى على الصليب. لماذا؟ لأنه لم يكن لإبليس حق شرعي في هذا العمل. هذا الحادث، الصليب، جلب على إبليس حكما نهائيا قاطعا بالموت. إن الشخص المحكوم عليه بالموت لا يملك سندًا شرعيًا، إنه أصبح بلا حقوق، بلا امتيازات. إنه مُفلس وعاجز شرعًا. وهذا ما عناه بولس لما قال إن عيسى من خلال الموت، قد قضى على « إِبْلِيسَ الَّذِي لَهُ سُلْطَةُ الْمَوْتِ.»[38] لذلك فإنه منذ موت عيسى على الصليب، لم يعد لإبليس سلطان شرعي على أي مؤمن. بواسطة الصليب أنقذنا الله «مِنْ سُلْطَانِ الظَّلامِ، وَنَقَلَنَا إِلَى مَمْلَكَةِ ابْنِهِ الْمَحْبُوبِ.»[39]

38) عب 2: 14
39) كو 1: 13

مع أن الشيطان مقضي عليه شرعًا، وليست له سلطة قانونية فوق أي مؤمن، إلا أن الله يستخدمه، كخصم في تدريب العروسة المصطفاة على الظفر وعلى تعلم المحبة المضحية. ولقد أدرك بولس ذلك لمَّا قال: «لأَنَّ الضِّيقَ الَّذِي نُوَاجِهُهُ هُوَ بَسِيطٌ وَمُؤَقَّتٌ، لَكِنَّهُ يُهَيِّئُ لَنَا جَلالا أَبَدِيًّا عَظِيمًا يَفُوقُهُ. إِذَنْ نَحْنُ لا نَنْظُرُ إِلَى الأُمُورِ الَّتِي نَرَاهَا، بَلْ إِلَى الأُمُورِ الَّتِي لا نَرَاهَا. لأَنَّ الَّذِي نَرَاهُ مُؤَقَّتٌ، أَمَّا الَّذِي لا نَرَاهُ فَأَبَدِيٌّ.»[40] عندما يُشفى المؤمن من مرض أو يُنقذ من بلاء يكون قد انتصر هنا والآن. وحين تستمر أعراض المرض أو البلاء ويتعلم المؤمن من خلالها بُعدًا جديدًا للمحبة المضحية، فهو منتصر أيضًا لأن مرتبته في عالم الخلود والأبد تزداد وتعلو.

## المجال الشامل للكفارة

تساعدنا كلمة الله لنحصل على الصحة والعافية والنجاح والازدهار. فمن التكوين إلى الرؤيا، يمتد الخبر المفرح بأن الكفارة قد غطت كل حاجات الإنسان. وتؤكد لنا وعود كتاب الله،[41] أن الكفارة تزودنا بكل ما نحتاجه للجسم والنفس والروح في هذا الزمن وفي الآخرة. ونجد أشمل تعبير عن هذه الوعود في كلام الرسول بولس: «إِلَهِي سَيُعْطِيكُمْ كُلَّ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ حَسَبَ غِنَاهُ الْعَظِيمِ جِدًّا بِوَاسِطَةِ الْمَسِيحِ عِيسَى.»[42] ويقول الرسول يوحنا بالوحي الكريم: «أَيُّهَا الْحَبِيبُ، أَرْجُو أَنْ تَكُونَ بِخَيْرٍ

40) 2 كور 4: 17–18
41) وتبلغ 32000 وعد
42) في 4: 19

مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَأَنْ تَكُونَ مُتَمَتِّعًا بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ جِسْمِيًّا كَمَا أَنَّكَ بِحَالَةٍ جَيِّدَةٍ رُوحِيًّا.»[43] وهنالك الآلاف من وعود مماثلة تضمن الصحة والإزدهار لعباد الله المطيعين.

## نظرية واضحة للصحة والإزدهار

وعد الله بني إسرائيل، منذ البداية، ببركات دنيوية وروحية ما داموا مطيعين له. وواصل عيسى وتلاميذه تلك الوعود بسجل أعجوبات الشفاء التي قاموا بها. يقول الوحي: «هَلْ فِيكُمْ وَاحِدٌ مَرِيضٌ؟ فَيَجِبُ أَنْ يَسْتَدْعِيَ شُيُوخَ الْجَمَاعَةِ، وَيَدْعُوا اللهَ مِنْ أَجْلِهِ وَيَدْهُنُوهُ بِزَيْتٍ بِاسْمِ الْمَسِيحِ. وَالدُّعَاءُ بِإِيمَانٍ يَشْفِي الْمَرِيضَ، وَالْمَسِيحُ يُقِيمُهُ. فَإِنْ كَانَ مَرَضُهُ بِسَبَبِ ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ، يُغْفَرُ لَهُ.»[44]

ويقتنع الكثيرون، من كلمة الله، بأن الصحة والإزدهار هما اختياره الأول والأفضل لأبنائه المطيعين. وقد علم المسيح تلاميذه بأن يدعوا قائلين: « لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ عَلَى الأَرْضِ كَمَا هِيَ فِي السَّمَاءِ.»[45] ونحن موقنون من أنه لا يوجد مرض أو فقر في الجنة، وبما أن المرض والفقر هما نتيجة للخطيئة، فلا يمكن إذن أن يكونا من إرادته المفضلة، لأن الخطيئة وجميع آثارها هي ضد إرادة الله، الحمد له تعالى. إن الكون بأسره متجه نحو نظام اجتماعي اسمه مملكة الله، حيث لا وجود للخطيئة وآثارها.[46] ولا يمكن أن تكون هذه

43) 3 يو 1: 2
44) يع 5: 14، 15
45) متى 6: 10
46) رؤ 21: 4–5؛ 22: 2–5

اختيار الله في أي زمان لأي جزء من مملكته. إن كل جهد الله في الكون موجّه إلى إلغاء تام للخطيئة وجميع عواقبها في شتى عوالم خليقته التي افتداها بابنه عيسى المسيح.

إذن، لماذا يعاني أي من أبناء الله المطيعين؟

الجواب هو: لأن الغاية النهائية للكون هي نظام اجتماعي تسود فيه المحبة المضحية.

# 5
# سر الألم

## تأهيل للحكم

نعود ونقول إن العروسة المصطفاة للمسيح ستجلس معه على عرشه، وتشاركه المُلك. ولكن، لكي تكون مؤهلة لذلك، يُعِدُّها الله بواسطة الألم والمعاناة لتكتسب صفة المحبة المضحية. فالألم إذن هو إعداد ضروري للحكم.

لقد اعتبر الله آدم قبل سقوطه رجلًا صالحًا جدًا. لكن السقوط جلب على آدم وذريته كلها ضررًا هائلًا، هو ضرر الأنانية. والأنانية أساس كل الخطيئة والشقاء، وينتج عنها تدمير ذاتي.

## ضرورة التحرر من الأنانية

ولكي يجعل الله الإنسان المؤمن في مثل ابنه تعالى، لا بد للعزيز الحميد من أن يحرر هذا الإنسان من أنانيته. ويبدأ التحرر من الأنانية بالصلاح والولادة الجديدة ويستمر في التطهر والإمتلاء بالروح القدوس. وعمل التطهير يتواصل طوال حياة المرء. «وَأَنَا وَاثِقٌ أَنَّ اللهَ الَّذِي بَدَأَ فِيكُمْ هَذَا الْعَمَلَ الصَّالِحَ، يُنْمِيهِ حَتَّى يَكْمُلَ يَوْمَ يَأْتِي الْمَسِيحُ عِيسَى ثَانِيَةً.»[47]

47) في 1:6

## عمل المحنة

يستحيل استمرار التطهر والنمو في المحبة الإلهية المضحية، دون المرور في المحن والتأديب. هنا بعض الآيات المباركة من كتاب الله تتحدث عن هذا:

بَلْ نَفْرَحُ حَتَّى فِي الضِّيقَاتِ، لأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ الضِّيقَ يُعَلِّمُنَا الصَّبْرَ، وَالصَّبْرُ يُؤَهِّلُنَا لِلانْتِصَارِ فِي الْمِحَنِ، وَالانْتِصَارُ يَبْعَثُ فِينَا الأَمَلَ، وَالأَمَلُ لا يَخِيبُ، لأَنَّ اللهَ أَفَاضَ مَحَبَّتَهُ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُّوسِ الَّذِي أَعْطَاهُ لَنَا.[48]

هَلْ نَسِيتُمُ الْكَلِمَاتِ الْمُشَجِّعَةَ الَّتِي يُخَاطِبُكُمُ اللهُ بِهَا بِاعْتِبَارِ أَنَّكُمْ أَبْنَاؤُهُ؟ إِنَّهُ يَقُولُ: «يَا ابْنِي، لا تَستَخِفَّ بِتَأْدِيبِ اللهِ، وَلا تَيْأَسْ إِذَا وَبَّخَكَ، لأَنَّ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ يُؤَدِّبُهُ، وَيَجْلِدُ كُلَّ ابْنٍ له.»

اِحْتَمِلُوا التَّأْدِيبَ، إِنَّ اللهَ يُعَامِلُكُمْ كَبَنِينَ. وَهَلْ هُنَاكَ ابْنٌ لا يُؤَدِّبُهُ أَبُوهُ؟ فَإِنْ كَانَ اللهُ لا يُؤَدِّبُكُمْ، كَمَا يُؤَدِّبُ بَاقِي أَبْنَائِهِ، فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّكُمْ لَسْتُمْ أَبْنَاءً، بَلْ أَوْلادٌ غَيْرُ شَرْعِيِّينَ. كَانَ لَنَا آبَاءٌ بَشَرِيُّونَ يُؤَدِّبُونَنَا وَكُنَّا نَحْتَرِمُهُمْ. إِذَنْ يَجِبُ أَنْ نَخْضَعَ أَكْثَرَ إِلَى الأَبِ الرُّوحِيِّ، لِكَيْ نَحْيَا. وَهَؤُلاءِ الآبَاءُ الْبَشَرِيُّونَ أَدَّبُونَا أَيَّامًا قَلِيلَةً وَذَلِكَ حَسَبَ اسْتِحْسَانِهِمْ، أَمَّا اللهُ فَيُؤَدِّبُنَا لِخَيْرِنَا، لِنَكُونَ كَامِلِينَ مِثْلَهُ. وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنَّ كُلَّ تَأْدِيبٍ يَبْدُو فِي وَقْتِهِ أَنَّهُ مُؤْلِمٌ وَغَيْرُ سَارٍّ، لَكِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ يُنْتِجُ سَلامًا وَصَلاحًا فِي الَّذِينَ تَعَلَّمُوا مِنْهُ.[49]

يتضح من الآيات الكريمة السابقة، وسواها من الآيات المماثلة، أن الحزن والألم والبلاء التي تصيب المؤمن هي في الدرجة الأولى ليست وسائط لتعذيب

48) رو 5: 3–5
49) عب 12: 5–11

أبناء الله، بل وسائل لتدريبهم. إنها ليست بلا هدف. ويبدو أن القلائل منا ينشدون مسيرة أعمق مع الله، إلا إذا كانوا مُكْرهين.

يقول داود: «قَبْلَ مَا عَانَيْتُ الذُّلَّ أَنَا ضَلَلْتُ، أَمَّا الآنَ فَأُطِيعُ كَلاَمَكَ... الذُّلُّ الَّذِي عَانَيْتُهُ كَانَ لِخَيْرِي، لأَنِّي تَعَلَّمْتُ فَرَائِضَكَ.»[50]

من منا لم يعرف أناسًا ابتعدوا عن الله ثم أعادتهم إليه نوبة قلبية أو مرض السرطان أو حادثة سيارة أو مصيبة كبيرة أخرى؟

## إكتمال المسيح بالألم

من أبلغ التعليقات بشأن القصد من الألم في تدبير الله، قول الإنجيل الشريف: «اللهُ هُوَ صَانِعُ كُلِّ شَيْءٍ بِقُوَّتِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَوْجُودٌ لِجَلاَلِهِ. فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُحْضِرَ أَبْنَاءً كَثِيرِينَ إِلَى جَلاَلِهِ، جَعَلَ الَّذِي يَقُودُهُمْ إِلَى النَّجَاةِ يُكَمِّلُ عَمَلَهُ بِوَاسِطَةِ الأَلَمِ.»[51] وقوله أيضا: «وَمَعَ أَنَّهُ الابْنُ، تَعَلَّمَ الطَّاعَةَ بِوَاسِطَةِ الأَلَمِ الَّذِي قَاسَاهُ.»[52]

إن إكمال الله للمسيح لم يكن إكمالًا لصفة أخلاقية، وإنما كان إكمالًا لتهيئته لعمله كقائد ومنشيء لنجاتنا. قبلما عانى عيسى كانت عنده شفقة الله؛ وبعدما تألم، أصبح بتهيئته كفوًا لأن يخدم كقائد لنجاة الإنسان. لما كان «الأبناء الكثيرون» الذين اختارهم المسيح ليشاركوا معه المجد والحكم، قد تحتم عليهم أن يقاسوا ليجري إعدادهم وإكمالهم، فقد وجب على المسيح أيضًا أن يكمل خبرته البشرية بالأسلوب عينه حتى يقودهم.

---

50) مز 119: 67، 71
51) عب 2: 10
52) عب 5: 8

## أهمية الإنكسار

إن آلام المسيح قد أنضجت وأكملت اختباره البشري. وهي لم تتطلب تطهير أي شيء من طبيعته الأخلاقية، حتى كإنسان، لأنه كان بلا خطيئة على الإطلاق. ولكن الأمر ليس كذلك مع الإنسان الذي سقط في الخطيئة. فلا يمكن أبدًا أن تتشكل في الإنسان، إن هو لم يقاس، صفة شبيهة بصفة المسيح. فمن غير المقاساة، لا يستطيع الإنسان أن يتحرر من الأنانية. قال أحدهم: «إن الله يجد منفعة قليلة في شخص غير مرضوض، غير منكسر القلب!» وقال آخر: «هناك أشياء لا يقدر الله أن يعملها لنا إن كنا لا نتألم!»

قد يتمكن امرؤ بإرادته الذاتية أن يهرب من نوع معيّن من الألم؛ ولكنه سيقع ضحية لألم أفظع وأعمق هو ألم عبادة الذات.

إن الغطاس في الروح القدوس ليس حفلة تخرجنا من مدرسة الفداء وحياة الإيمان، بل يأتي بعد هذا الغطاس كثير مما لا بد للمؤمن من مواجهته على طريق التأديب وتلطيف الطباع. ولن يمضي وقت طويل على المؤمن المتطهر قبل أن يكتشف فظاظة في سلوكه فيغتم بسببها ويتخلص منها، وخشونة في صوته فيستنكرها ويهجرها. كما يكتشف أن مخلفات المرض القديم ما زالت عالقة به، رغم أن المرض ذاته قد راح وولّى، فيعمل على التحرر منها قليلًا فقليلًا.»

## الركود الروحي نقيصة وعيب

من أكبر العيوب التي قد يُمنى بها المؤمن، هو وقوعه في حالة ركود روحي. إن ثمار الكرمة تنمو دائمًا على الأغصان الجديدة، لذا يتوجب

تشذيب وتقليم الكرمة. وكان هذا ما حدا بعيسى إلى أن يقول: « أَنَا هُوَ الْكَرْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَأَبِي هُوَ الْكَرَّامُ. كُلُّ غُصْنٍ فِيَّ لا يُثْمِرُ يَقْطَعُهُ، وَكُلُّ غُصْنٍ يُثْمِرُ يُنَقِّيهِ لِكَيْ يُثْمِرَ أَكْثَرَ.»[53] وإذا كانت في الغصن حساسية، سيكون التقليم مؤلمًا. ولكن من دون ألم، لن يكون نمو ولا إثمار.

## رثاء النفس ضياع

ما أبلغ معنى الكلمات التي قالها عيسى: «أَبِي هُوَ الْكَرَّامُ.»[54] فالكرَّام ليس الشيطان بل الله. من السهل أن أسقط فريسة للإستياء والغيظ ورثاء النفس، إن كنت لا أدرك هدف الله الكريم مما يحل بي من حزن وألم. سواء أكان ذلك نتيجة لمرض بدني أو لظروف مخيبة للأمل أو حتى لصراع حول اختيار ما في الحياة. إن رثاء النفس يقود إلى كآبة وحبوط، فينهزم المؤمن بسهولة، وتتدهور حالته الروحية. فإن حدث هذا، يكون قد أضاع حزنه بلا فائدة. وما سمح به الله ليفطم هذا المؤمن عن حب الذات وعبادتها، من أجل نموه الروحي، يكون قد إنتهى إلى خسران.

## عزاء في الألم

غالبًا ما نَشُكُّ في جدوى العجز والمرض والألم في حياة أشخاص أتقياء صالحين معروفين في التاريخ. قد نسأل: «لماذا؟» لكن الحقيقة هي أن الله استخدم آلام هؤلاء الأتقياء لتكون عزاء عذبًا، وشفاء وقوة للملايين من المؤمنين المترددين أو الضعفاء. لهذا فإن المقطوعة الشعرية التالية تُعَبِّر تعبيرًا

53) يو 15: 1-2
54) يو 15: 1

جميلًا عما يفعله الله مرارا وتكرارًا في تحويل أحزان البعض إلى بركات للآخرين:

من مِعصرة الألم،
يخرج أحسن نبيذ للنفس.
العيون التي لا تذرف دموعا
لا تُشِعُّ إلا قليلًا من الضياء.

إن الألم، من أي مصدر ومن أي طبيعة وبأي شدة، وقبول هذا الألم بانتصار وفرح، دليل المحبة المضحية. المحبة المضحية هي العُملة المتداولة شرعيًا في السماء. الألم الذي أقبله هنا بانتصار، يقتل فيَّ حب الذات، وينقذني من الأنانية، ويحررني لأُحب الآخرين. الذين تألموا وعانوا هم النخبة؛ هم الأشراف والنبلاء الذين سيحكمون في المستقبل، هم الأمراء في مملكة السماء!

## مبارك هو الحزن

حتى ننمو في الخُلُق من الضروري أن ندرك أنه ما من أمر يسمح الله بحدوثه لأبنائه، خيرًا كان أم شرًا، هو عرضيّ أو بلا سابق تصميم. كل أمر هو مقصود لإخراجهم من أنفسهم ودفعهم نحو الله. الهدف من الحياة كلها هو أن تكون طريقًا إلى الله. والغرض من ذلك كله، بلا استثناء، هو بناء الخُلُق وصقله.

إن الله «لا يَنْعَسُ وَلا يَنَامُ.»[55] ولأنه تعالى هو السميع البصير، المحيط بكل شيء علمًا، فلا يستطيع الشيطان أن يأخذه بغتةً. هذا الإيمان وحده يجعل .بميسورنا أن نفهم البيان القائل: «مبارك هو الحزن.»

55) مز 121: 4

## لغز الإخفاق في الشفاء

ثمة معاناة تعذّب الكثيرين ممن يبحثون عن الشفاء من المرض. إنهم يدركون وجود مبدأ الشفاء، ويعلمون أن كفارة المسيح كاملة، كما يؤمنون كليةً بأن عيسى المسيح نفسه قد تحمّل أمراضهم وحمل آلامهم، وبأنهم محررون شرعًا من اضطهاد الشيطان لهم؛ ومع ذلك يظهر أنهم لا يستطيعون أن يحوزوا على الإيمان الذي يشفيهم فعلًا. ويستمر وضعهم على هذا النحو عدة سنوات بل وحتى الموت.

بعض المؤمنين ينال الشفاء، لكن بعضهم الآخر لا يُشفى. لدى البعض إيمان يرد لهم عافيتهم بأعجوبة، وآخرون كثيرون لا يملكون هذا الإيمان عينه.

# 6
# إيمان أعظم من إيمان

## أعظم ربح أبدي

قام لديّ، أثناء سنواتي الطويلة في خدمة الله وحتى عهد قريب، انطباع قوي عن الشفاء الخارق للطبيعة، معتقدًا أنه دائمًا يجلب لله جلالًا، وللإنسان المؤمن ربحًا أبديًا، أكثر مما تجلبهما المعاناة المتواصلة. وربما كان هذا صحيحًا للذين نالوا الشفاء. لكن، ألا يكون الأمر مختلفًا مع الذين لم يُشفوا؟

إذا كان هدف الكون هو إعداد الخلُق طبقًا للمحبة المضحية، وإذا كان الخلُق لا يمكن صنعه من غير محنة، أفلا يُنتج «توجيه وضبط» المحنة مثل الجلال والربح المنشودين، في هذا الزمن وفي الخلود؟ يمكن الجواب عن هذا السؤال في ردود فعلنا على التأديب. فالإستياء والتمرد هما مضيعة لأحزان المرء، بينما الرضى المتواضع وانكسار الفؤاد يتيحان المجال للجلال الأبدي.

## التكريس للّه غالبًا يعني المعاناة!

ليس من الغريب أن أنبل الأتقياء والصالحين، أولئك الذين قدموا أكبر خدمة لمُلك الله على الأرض، كانوا أكثر المؤمنين معاناةً. ما كان للعالم أن يسمع

بأشخاص معينين، ويَنعم بعبير حياتهم، لولا أنهم تعرضوا للمحن وانتصروا عليها! بسبب عمق رضوخهم الظافر لله في محنهم، تحولت آلامهم إلى خلُق خلّف أثرًا لا يمحى في الحياة الروحية لأجيال أعقبتهم، وربما كان أكثر أهمية أنه زاد السماء ثراءً.

## البعد العميق للمحبة المضحية

يبدو ممكنًا بل مرجحًا أن المكانة والخدمة الخالدتين لأولئك الصالحين، وإسهامهم في المُلك الأبدي، قد تعززت بالطريقة التي مكنتهم من الانتصار في كل شدة، خاصةً في بلاء المرض، أكثر مما لو شُفوا شفاءً أعجوبيًا. ويظهر محتملًا أن تمام خضوعهم وإيمانهم الظافر بحكمة ربهم المعبود وطيبته، قد بعثا في قلبه تعالى فرحًا ورضى أشد مما كان سيبعثه إيمان يقوم بمعجزات الشفاء من الأمراض والإنقاذ من الشدائد.

إن الإيمان الذي يستطيع أن يقول بصدق: «حَتَّى إِنْ قَتَلَنِي، يَبْقَى أَمَلِي فِيهِ. لَكِنِّي سَأُدَافِعُ عَنْ سُلُوكِي فِي مَحْضَرِهِ،»[56] ربما كان في نظر الله أكرم من الإيمان الذي ينقل الجبال، لأنَ الإيمان الأول صادر عن محبة أكثر تضحية بالذات. وكلمات الرسول العظيم بولس تؤيد ذلك: « لَوْ كُنْتُ أَتَكَلَّمُ بِلُغَاتِ النَّاسِ وَالْمَلاَئِكَةِ، لَكِنْ لَيْسَ عِنْدِي مَحَبَّةٌ، فَأَنَا نُحَاسٌ يَقْرَعُ بِلا مَعْنَى، أَوْ أَجْرَاسٌ تَضْرِبُ بِلا انْسِجَام! 2وَلَوْ كَانَتْ عِنْدِي مَوْهِبَةُ النُّبُوَّةِ، وَكُنْتُ أَفْهَمُ كُلَّ الأَسْرَارِ، وَأَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ، وَكَانَ عِنْدِي كُلُّ الإِيمَانِ لأَنْقُلَ الْجِبَالَ، لَكِنْ لَيْسَ عِنْدِي مَحَبَّةٌ، فَأَنَا لا شَيْءَ.»[57]

56) أي 13: 15
57) 1 كور 13: 1–2

أصيبت كاتبة ذات شهرة عالمية بمرض أقعدها الفراش، وفقدت للموت أولادها، لكن محبتها الفائقة لربها مكنتها من أن تنتصر على الألم والمعاناة والمصائب الفادحة. وقد تأثر الكثيرون بإيمانها الباهر كما عبّرت عنه في كتاباتها.

## أبطال الإيمان

ماذا عن آخرين عديدين ممن يطلبون الشفاء ولا يجدونه؟ هل تتاح لهم فرصة لتمجيد الله عن طريق معاناتهم، كما حدث لتلك الكاتبة؟ يجيب الوحي المبارك عن هذا السؤال بأن يورد سجلًا لأبطال الإيمان الذين أُنقذوا بجلال وإعجاز وبما هو خارق للطبيعة، كإنقاذ النبي دانيال من حفرة الأسود.[58] لكن هناك فئة أخرى من أبطال الإيمان مدون ذكرها بعد ذلك: «آخَرُونَ احْتَمَلُوا التَّعْذِيبَ حَتَّى الْمَوْتِ، وَرَفَضُوا النَّجَاةَ لِكَيْ يَقُومُوا إِلَى حَيَاةٍ أَفْضَلَ. وَغَيْرُهُمْ قَاسَى الْهُزْءَ وَالْجَلْدَ، بَلْ وَالْقُيُودَ وَالسِّجْنَ. وَآخَرُونَ رُجِمُوا بِالْحِجَارَةِ، أَوْ نُشِرُوا بِالْمِنْشَارِ، أَوْ قُتِلُوا بِالسَّيْفِ. ثُمَّ هُنَاكَ مَنْ تَشَرَّدُوا لابِسِينَ جُلُودَ غَنَمٍ وَجُلُودَ مَاعِزٍ، وَهُمْ مَحْرُومُونَ وَمُتَضَايِقُونَ وَمَظْلُومُونَ.»[59] ويؤكد الوحي أن الله رضي عن هؤلاء أيضا حيث يقول: «كُلُّ هَؤُلاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لإِيمَانِهِمْ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَحْصُلُوا عَلَى مَا وَعَدَهُمْ بِهِ.»[60]

هل يعتقد أحد أن أولئك الذين أُنقذوا وشُفوا كانوا جديرين بالثناء على إيمانهم أكثر من الذين لم يُشفوا وينقَذوا؟ هل يشكُّ أحدٌ في أن الذين عانوا

58) عب 11: 32–35
59) عب 11: 35–37
60) عب 1: 39

وثبتوا لكنهم لم يظفروا بالنجاة، قد أظهروا من المحبة درجة تعادل بل قد تفوق درجة المحبة التي أظهرها من أُنعم عليهم بالمعجزات؟

عندما تُوزَع على كل واحد منا جائزته في السماء[61] حيث المحبة المضحية هي «العُمْلة القانونية»، أليس من المحتمل أن من «شربوا كأس الألم» بابتهاج واحتملوا الضيق والمعاناة والعذاب، سيكونون في مرتبة تساوي أو تفوق مرتبة من أنقذهم تدخل معجزي خارق للطبيعة؟

## ما هي المعاناة في المسيح؟

نفكر عادة في الضيق الذي قال بولس أنه « يُهَيِّئُ لَنَا جَلالا أَبَدِيًّا عَظِيمًا، »[62] على أن الراجح هنا هو الاستشهاد أو تلقي الإضطهاد الشديد. ولقد قيل إن عدد الذين استشهدوا من أجل المسيح في القرن الـ20 ، يفوق مجموع عدد الذين استشهدوا من أجله في كل الـ19 قرنا السابقة! وقد يُدعى البعض منا أيضًا إلى أن يبرهن ذات يوم عن إيمانه ومحبته بتقبله تاج الشهادة.

معظم شدائد المؤمنين في هذه الأيام أمراض جسدية وضيقات مالية أو صراعات شخصية. هل هذه الشدائد تشمل الضيق البسيط، الذي قال عنه بولس إنه يعمل لصالحنا؟ ربما هي ما قصده حين قال: « يَجِبُ أَنْ نَتَأَلَّمَ مَعَ الْمَسِيحِ هُنَا، لِكَيْ نَتَمَتَّعَ بِجَلالِهِ هُنَاكَ، »[63] أو حين قال: «إِنْ ثَبَتْنَا فِيهِ نَمْلِكُ مَعَهُ. »[64] والثبات هنا يشمل الصمود برغم كل المشقات والتجارب بما فيها الألم.

61) 1كور 9: 24–27
62) 2كور 4: 17
63) رو 8: 17
64) 2تم 2: 12

إن ما يحدد القيمة الروحية للحزن ليس هو دائمًا نوعية هذا الحزن، بل مدته ورد فعل المؤمن عليه، كذلك طبيعة الحزن ومدى قسوته.

كأمثلة لهذا، العيشة برضى مع رجل فظ، أو امرأة مشاكسة، أو غير وفية، أو ولد عاصٍ وعاق، أو إنفاق سنوات طويلة وربما العمر كله مع مريض مقعد ويائس. هذا النوع من الحياة قد يُطوِّر لدى المؤمن قوة تعادل قوة الاستشهاد، وأيضًا بُعدًا عميقًا للمحبة.

إن المقصود من البلايا هو أن تقود المرء إلى الله، في استسلام أتمّ، وإخلاص أعمق، وفي مزيد من الصبر ومن جمال الروح، ومن المحبة المُضحية غير الذاتية الموجهة إلى الله وإلى الإنسان.

وعندما تقود معاناة المؤمن إلى كل ذلك، يمكن إعتبارها معاناة مع المسيح وفي سبيله، لأنها تكون قد مكّنت المسيح من إنجاز قصده وغايته في هذا المؤمن. وربما استوجبت أن ينقضي العمر كله في التأديب والتدريب لانتاج روح الشهادة الحقة.

أليست المعاناة من أي نوع كانت، هي معاناة مع المسيح، إن طوّرت في المؤمن بُعدا أعمق للمحبة المضحية؟

إن غالبية المؤمنين التي تطلب الشفاء ولا تحصل عليه، ومع ذلك تخضع للضيق وتتحمله بشجاعة، ستبلغ درجة من الجلال الأبدي تساوي ما بلغه الذين ذكرهم الوحي في الفصل الـ 11 من كتاب العبرانيين كما أشرنا من قبل إذا انتصر هؤلاء المؤمنون على المحن كما انتصر أولئك.

## بطولة الصابرين في التجارب العادية

قد يظهر للبعض أن حياة انتهت سريعًا بالشهادة هي أعظم بطولة، وهي دليل قوي على محبة لا تموت، بل هي أبلغ من حياة طالت في الصبر والإيمان

خلال التجارب العادية والشدائد اليومية. ولكن ألا يحصل الله منا على النوعية ذاتها من الولاء ومن المحبة المضحية، إن نحن صبرنا واحتملنا الحزن والألم وخيبة الأمل المتكررة، والتي يسمح تعالى بحدوثها كجزء من تدريبه الودي لأبنائه؟

وإن كان الجواب إيجابًا، إذن فإن أولئك الذين يعانون منتصرين، راضين بالأمور التي تؤذي والتي تشوه، في خضوع وشكر وحمد لله تعالى، يعززون منزلتهم الأبدية بطريقة مماثلة لما فعله الشهداء. فهم، حين يتعلمون رد الفعل الملائم في مدرسة المعاناة، سينمون ويُظهرون مستوى من المحبة المضحية يهيئهم للحكم الأبدي، تمامًا كما لو كانوا قد أقدموا على الشهادة.

أما التمرد والاستسلام للكآبة والرثاء للنفس، فهي مضيعة للأحزان. والذين عجزوا عن نيل الشفاء، ثم نَفِدَ صبرُهم واستسلموا للغضب ضد الله، يُضيِّعون هباء ما هدف إليه تعالى من نمو المؤمنين في المحبة ومن رفع مكانتهم في المُلك الأبدي.

# 7
# مهمة الحياة الكبرى
# تعلم المحبة المضحية [1]

## مرشحون لمرتبة أعلى

ربما كان الله قد عيّن أولئك الذين يتألمون ويعانون، ليحصلوا على مرتبة أعلى وأكثر جلالًا في ملكه المقبل. لقد قال بولس: إن معاناة المؤمن الصابر الراضي، ستتحول إلى جلال أبدي.[65]

إذن الذين لم يحصلوا على الشفاء، يجب ألا يظنوا أنهم من الدرجة الثانية في مُلك الله! إنما قد يتم ترشيحهم إلى مرتبة أعلى في الجلال الأبدي! ما من شيء عرضي في حياة المؤمن بابن الله القدوس عيسى المسيح. فجميع المؤمنين المولودين ثانية هم في مرحلة تدريب على الحكم. والله نفسه يُشْرِف على تدريب عروسة ابنه الأبدية، أي جماعة المؤمنين بعيسى.

كذلك الله نفسه يختار الأدوات والوسائل التي هي في علمه ضرورية لصوغ وتهيئة العروسة، جماعة المؤمنين، لدورها الفريد في المُلك الأبدي. قال أحدهم إن السكين تؤدي أحسن عملها إذا كانت حادة وأشد مضاءً. ولما يصنع الله شخصا صالحا، يستخدم معه أشد سكين حدة ومضاءً.

---

65) رو 5: 3؛ 2 كور 4: 17

ليس في تدبير الله أن يصنع صالحا بلا ألم، لكنه عز وجل لا يستخدم ألمًا غير ضروري. ويختار تعالى أي وسيلة أو أداء بحسب الوظيفة التي يعدها لكل صالح في الملك الأبدي.

## هذا الأمر هو مني

تحت هذا العنوان، وضعت سيدة مؤمنة كتيبًا تؤيد فيه أن ما يقع في حياة المؤمن ليس عرضيًا، فتورد على لسان الله عز وجل في موضع من الكتيب، الكلمات الجميلة التالية:

«يا بِنْتي، لديَّ اليوم رسالة مني إليك، دعيني أهمس بها في أذنك، لعلها أن تطلي بذهب الجلال أية سحب عاصفة قد تلوح لك، وتذلل وعورة أي مكان قد تطأه قدماك. إنها رسالة قصيرة، تتكون من أربع كلمات فقط، فاجعليها تغوص في أعماق روحك، وشكلي منها وسادة تريحين عليها رأسك المتعبة، هذه الكلمات الأربع هي: هذا الأمر هو مني.

«هل فكرتِ أبدًا في أن كل ما يهمك إنما يهم الله أيضًا؟ فهو يقول لكِ: «أَنْتَ غَالٍ عَلَيَّ، أَنْتَ نَفِيسٌ، أَنَا أَحْبَبْتُكَ.»[66] ويقول الوحي: «إِنَّ مَنْ يَمَسُّكُمْ يَمَسُّ حَدَقَةَ عَيْنِهِ.»[67]

«عندما تهاجمكِ التجارب ويأتي العدو مثل سيل، سوف أعلمك أن هذا الأمر هو مني، وأن ضعفك يحتاج إلى قوتي، وسلامتك تكمن في أن تدعيني أحارب عنك.

66) إش 43: 4
67) زك 2: 8

«هل أنتِ في ظروف صعبة، يحيط بك أناس لا يفهمونك، لا يستشيرونك ويتركونك في المؤخرة دائمًا؟ هذا الأمر مني. أنا إله الظروف. وأنت لم تجيئي إلى مكانك صدفة، بل هو ذات المكان الذي قصده الله لك.

«ألم تسألي أن تصيري متواضعة؟ لقد وضعتك في المدرسة التي تُعَلِّم درس التواضع! إذن بيئتك وظروفك ورفاقك إنما هم يُنفذون إرادتي فيكِ.

«هل تواجهك صعوبات مالية؟ هل أصبح من العسير عليك أن تُلبي مطالب الحياة؟ هذا الأمر هو مني، لأني أنا حامل محفظتك، وسأجعلك تكسبين منها معتمدة عليّ. ذخائري وعطاياي لا حدود لها.[68] ستكونين برهانًا على وعودي.

«أتجتازين ليلة من الأحزان؟ هذا الأمر هو مني، ولقد عرفت أنا الآلام وخبرت الأسى. جَعَلْتُ أفراح الدنيا تُخيبك لكي تنصرفي عنها إليَّ فأمنحك عزاء أبديا دائمًا.[69] هل تقت إلى أن تؤدي لي عملًا عظيمًا ولكن الألم والضعف أقعداك عنه وطرحاك الفراش؟ هذا الأمر هو مني. لم أستطع أن أحوز على انتباهك في أيامك المشغولة، فأردت أن أعلمك درسًا من أعمق دروسي.

«بعض أعظم العاملين لي هم الذين أغلقت دونهم باب الخدمة العملية، ليتعلموا كيف يستخدمون سلاح الصلاة والدعاء.

«إني اليوم أضع في يديك هذا الإناء من الزيت المقدس فاستعمليه يا طفلتي، مجانًا بلا حساب. إمسحي به كل ظرف قد يعترضك، وكل كلمة قد توجعك، وكل عائق قد يضيّق حدود صبرك، كل ما يكشف عن ضعفك.

«بمسحة الزيت ستذهب اللسعة بينما أنت تتعلمين أن تريني في كل الأشياء.»

---

68) في 4: 19

69) 2تس 2: 16–17

## المرتبة العليا للمفديين

لا معنى لمشاعر كتلك لو لم يكن الله يعمل فينا من أجل الخلود والأبد. لقد دبر بإحكام كل شأن يسمح بحدوثه لأي فرد من أفراد عروسة المسيح: «هَذِهِ هِيَ نِعْمَةُ اللهِ الْغَنِيَّةُ الَّتِي أَغْدَقَهَا عَلَيْنَا بِسَخَاءٍ. وَهُوَ بِكَامِلِ حِكْمَتِهِ وَفَهْمِهِ، كَشَفَ لَنَا سِرَّ قَصْدِهِ.»[70]

من السهل أن نتشكك في الأهمية الفائقة التي يعطيها الله لواحد من أبنائه. ولكي يدرك أحدنا اهتمام الله الأسمى به شخصيًا، يتحتم عليه أن يذكر أن البشر المفديين هم الطبقة الأعلى من الكائنات في هذا الكون، مباشرةً بعد الله العلي القدير. وبرهان ذلك هو أن كل إنسان مولود من جديد هو فرد مولود في عائلة الله.

## التفسير الصحيح الوحيد للكون

حيث يدرك الإنسان المولود من جديد من هو، وما قصد الله فيه، سيكون بوسعه أن يفهم بعمق أكثر لماذا يبذل الله له جهودًا عظيمة بلا حدود. إن الانسان المولود من جديد هو ابن حبيب لله.[71] إن نِعم الله الأب تشمل خليقته كلها من أنبلها إلى أحطها؛ ومحبته تعالى تحوي الجميع من أدق حشرة تنعم بنور الشمس ساعات معدودة ثم تزول إلى الأبد، إلى أرفع ملاك يقيم في وهج الجلال السمائي. لكن البشر المفديين وحدهم يشكلون أعضاء بيت الله وعائلته.[72] وهذا هو السبب في أن عنايته بنا بالغة الدقة إلى حد أن الشعرات في رأس أي واحد منا معدودة لديه سبحانه وتعالى.

---

70) أف 1: 7–9
71) 1يو 3: 2
72) أف 2: 19

ذلك وحده يفسرالكون. فكل الكون الطبيعي الهائل الحجم، بأجرامه التي لا تُعد، ليس ذا أهمية جوهرية. كل هذا الكون الطبيعي يستمد قيمته من علاقته بخطة الله ومقصده لعائلته. إن شعرة واحدة من رأس أي من أبنائه، الذين شملهم الفداء، تهمه أكثر مما تهمه أنظمة المجرات الضخمة بشموسها وأقمارها والكواكب التي تتراكم في السماوات وتدور في أفلاك الفضاء الخارجي.

## ليست وهمًا

كل ما يفعله الله، وأينما يفعله في كونه غير المحدود، ليس القصد الوحيد منه أن يُظهر قوته، بل ليُعِدَنا نحن البشر للسماء والعرش والخلود! إذن كل هذا لم يكن من أجل جماهير الملائكة، ولا من أجل كائنات تقطن الفضاء الخارجي، بل من أجل أهله من البشر، أعضاء بيته، عائلته! جلَّ وتعالى اسمه المبارك القدوس! حتى إن الكتاب يقول إن الملائكة هي أرواح خادمة، يرسلها الله لتخدم أولاده.[73] فالصليب لم يكن في سبيل الملائكة، بل في سبيل البشر الذين خلقهم الله ليُعبِّروا عنه والذين سيُكوِّنون عروسة المسيح: «اُنْظُرُوا مَا أَعْظَمَ الْمَحَبَّةَ الَّتِي أَحَبَّنَا بِهَا الأَبُ حَتَّى نُدْعَى أَبْنَاءَ اللهِ. وَنَحْنُ فِعْلا أَبْنَاؤُهُ.»[74]

هذه النظرة الكونية تُذهل العقل البشري، ولكنها التفسير الصحيح الوحيد للكون. ولهذا يقول الوحي أيضا إننا نتحدث عن أمور يقول عنها الكتاب: «أَشْيَاءُ لَمْ تُشَاهِدْهَا عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ بِهَا أُذُنٌ، وَلا يَتَصَوَّرُهَا عَقْلُ إِنْسَانٍ، هِيَ

73) عب 1: 14
74) 1يو 3: 1

الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ.» لَكِنَّهُ كَشَفَهَا لَنَا نَحْنُ بِرُوحِهِ. لأَنَّ رُوحَ اللهِ يَفْحَصُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَعْمَاقَ اللهِ.»[75]

عندما يدرك الإنسان ولو قليلًا مَنْ هو؛ ويعرف أن كل ما يجيئه، خَيرًا كان أم شرًا، إن هو إلا طريقة الله في إعداده للمُلك الأبدي؛ وأن مرتبته الأبدية تعلو بقدر ما يقسو تدريبه؛ عندها يستطيع مع بولس أن يشكر الله دائمًا وفي كل شيء.

75) 1كور 2: 9–10

# 8
# مهمة الحياة الكبرى
# تعلم المحبة المضحية (2)

## لا تخف من أن تتألم

ارتكب قائد جماعة دينية زلة خطيرة، وتكلم بعد مضي عدة سنين، عما أحدثته هذه البلية من تنقية وتطهير في حياته، فقال: «إن الله يستخدم لجلاله أولئك الذين يتحطمون وينسحقون تمامًا، في ثروتهم أو في طموحهم ومُثلهم العليا، في سمعتهم الدنيوية أو في عواطفهم أو في عافيتهم، والذين يزدري بهم الآخرون، ويبدون كأنهم مهجورون وعاجزون. أولئك هم الذين يتمسك الروح القدوس بهم ويستعملهم لمجد الله.» وقال آخر: «لا تخف من أن تتألم، لا تخش أن تُهزَم. إنما يصبح الرجال أقوياء، ويصبح الفرد منهم جيشًا، إذا هم وقعوا ولكنهم لم يتحطموا.»

قِسْ عمرك بما تخسره لا بما تكسبه،
قوة الحب تكمن في تضحيته؛
من يعاني الكثير من دهره
لديه الكثير ليعطيه ويجود به.

## الكمان المحطم

يُروى أن عازفًا مشهورًا على الكمان، طلب من أبرع صانعي الكمان في زمانه أن يصنع له آلة موسيقية تكون الأفضل من نوعها. ولما حان الموعد المضروب، توجه العازف إلى حانوت الصانع، والتقط كمانه وراح يضرب بالقوس على أوتاره، لكنه أُصيب بخيبة أمل كبرى، لأن أذنه لم تقبل النغم الصادر عن الآلة، فضرب الطاولة به، فتكسَّر الكمان إلى قطع. لكن الرجل دفع لصاحب الحانوت الثمن المتفق عليه، وذهب في حاله.

وبعد مدة من الزمن عاد العازف إلى حانوت الصانع مرة أخرى، وأخذ كمانًا وجده موضوعًا على الطاولة، وراح يعزف عليه، فسحرته هذه المرة روعة النغمات. وكم كان ذهوله شديدًا حين علم من الصانع أن هذا الكمان هو الكمان ذاته الذي كان العازف قد كسَّره إلى عدة قطع من قبل. فلقد جمع الصانع تلك القطع معًا، وببراعته الفائقة أعاد صنع الكمان المكسور. ولاقت دقة النغمات وجمالها ما تستسيغه أذن الفنان تمامًا.

## معنى الانكسار

لا يكون المؤمن منكسرًا إلا عندما يتخلص من كل استياء وتمرد ضد الله أو الناس. ومن يغضب وينتقم من الذين ينتقدونه أو يعارضونه، لا يكون منكسرًا. كل تبرير أو تبرئة للنفس وكل دفاع ذاتي، إنما يكشف عن روح غير منسحقة. وكل سخط ضد ظروف وأوضاع ناشئة عن العناية الإلهية، يدل على فقدان الإنكسار. إن الإنكسار الحقيقي يتطلب سنين من التحطم ومن الألم والحزن. على هذا النحو تستسلم الإرادة الذاتية وتتطور مستويات عميقة من الإذعان والخضوع، وإلا كان هناك القليل من المحبة المضحية.

إن غاية الله الكبرى في تعامله معنا هو أن يُجردنا ويُنقينا من الشوائب العالقة بنا. فمثلا إن كنت أتكل على طبيعتي الدنيوية، تَقِلُّ ثقتي بالله ويضعف اعتمادي عليه تعالى. إن الله لا يُطلق قوته لتلبي حاجات الإنسان في أزماته، إلا بعد أن يأتي بذلك الإنسان إلى نهاية نفسه.

ويظل المرء، ما لم تنسحق روحه، ممتلئًا بخططه ومشاريعه، وطموحاته وآماله. ولا يدخل الله في حقيقة أعمق مع مثل هذا الشخص، إلا بعدما يتجرد من أهدافه ومقاصده الأنانية، وتُفرغ نفسه كليةً. وإن بلوغ هذه الحالة، يستلزم عادة أن يتعرض المرء لإخفاق ذريع في اتكاله على ذاته.

## موت عميق للنفس

ويردنا شرح أوسع لتلك الحالة في الفقرات التالية:

«ليس هناك موت عن الخطيئة فقط، بل في كثير من الأشياء يوجد أيضًا موت أعمق عن الذات، بعد أن يجري تطهير الروح.

«كان أيوب رجلًا كاملًا، ميتًا عن الذنب. لكنه في آلامه الهائلة أخذت تموت فيه حياته الدينية، وعواطفه العائلية، وأيضا فكرته عن الله. ففي مصائبه، مات عن أشياء كثيرة لم تكن في ذاتها إثمًا، لكنها كانت عائقًا لاتحاده الأكبر مع الله.

«بعد ما طهر بطرس من الخطيئة وامتلأ بالروح القدوس، احتاج إلى رؤيا خاصة من السماء لتميت فيه النظريات التقليدية. ولقد حصل على أعظم درجات إنكار الذات وصلبها، والهجران إلى الله، بعد ما تم تطهير قلبه.

«ثمة عدد ضخم من الأشياء التي لا تعتبر ذنوبًا، بيد أن تعلقنا بها يمنعنا من تحقيق أعظم امتلاء بالروح القدوس وأوفر تعاون مع الله. وحكمته اللانهائية تأخذ بيدنا وتقودنا عبر صَلْبٍ داخلي عميق لأجزائنا الدقيقة، لفكرنا النبيل، لآمالنا

الكبيرة، وعواطفنا الأثيرة، ولنظراتنا واختباراتنا الدينية، ودوافعنا الروحية، ولحماسنا في التقوى، ولثقافتنا الضيقة، ولنجاحنا، وأيضا لأعز صداقاتنا.

«يستمر الصلْب الداخلي إلى أن تموت نفوسنا وننفصل عن كل المخلوقات، كل الصالحين، كل الأفكار والآمال والخطط، كل أشواق القلب الرقيقة وكل الأشياء المفضلة؛ ونموت عن جميع المتاعب والأحزان وخيبات الأمل، وعن كل مديح أو ذم، نجاح أو فشل، عزاء أو ضيق، كذلك عن كل الأقاليم والقوميات، وعن كل الرغبات إلا فيه تعالى.

«وتقوم درجات متفاوتة في الصلْب الداخي في شتى تلك الشئون. وربما ما من واحد طاهر في كل عشرة آلاف شخص وصل إلى درجة الموت عن النفس التي وصل إليها بولس ونظائره من الصالحين.

«وعلى خلاف تطهير القلب، يحدث هذ الصلب الداخلي الأنقى، تدريجيًا، فيمتد شهورًا وأعوامًا، وتموت الروح الداخلية مرة تلو المرة في ذات النقاط حتى تبلغ حالة لا مبالاة إلهية لها. وقد حصلت جمهرة كبيرة من المؤمنين على طهارة القلب، لكنها أمضت وقتًا طويلًا في اختبار الموت اليومي عن الذات، قبلما وجدت ضالتها الكبرى في الإتحاد الهادئ والراسخ مع الروح القدوس.

«تطهّر القلب يتم بالإيمان، والموت الأعمق عن النفس بالمعاناة.

«وكثير من آيات الوحي الكريم تعلمنا أن المراحل الأعلى من حالة الصلاح والتكريس يتم بلوغها من خلال المعاناة والألم.[76] ولعل أروع الآيات الكريمة في هذا الموضوع هي حيث يقول بولس:

76) مز 105: 18؛ 71: 19–21

«وَبِمَا أَنَّ اللهَ اعْتَبَرَنَا صَالِحِينَ بِوَاسِطَةِ الإِيمَانِ، فَنَحْنُ فِي سَلامٍ مَعَهُ بِمَوْلَانَا عِيسَى الْمَسِيحِ. وَبِوَاسِطَةِ الإِيمَانِ أَيْضًا، أَدْخَلَنَا إِلَى دَائِرَةِ نِعْمَتِهِ الَّتِي نُقِيمُ فِيهَا الآنَ، وَنَفْرَحُ بِالأَمَلِ الَّذِي عِنْدَنَا أَنَّنَا سَنَتَمَتَّعُ بِجَلالِ اللهِ. بَلْ نَفْرَحُ حَتَّى فِي الضِّيقَاتِ، لأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ الضِّيقَ يُعَلِّمُنَا الصَّبْرَ، وَالصَّبْرُ يُؤَهِّلُنَا لِلانْتِصَارِ فِي الْمِحَنِ، وَالانْتِصَارُ يَبْعَثُ فِينَا الأَمَلَ، وَالأَمَلُ لا يَخِيبُ، لأَنَّ اللهَ أَفَاضَ مَحَبَّتَهُ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُّوسِ الَّذِي أَعْطَاهُ لَنَا.»(77)

هنا نتعلم أن الصلاح هو بالإيمان، وأن دخولنا إلى دائرة نعمة الله هو أيضا بالإيمان، ثم نتقدم لنصل إلى موتٍ أعمق عن النفس وحياةٍ أكمل بالروح القدوس عبر المحن.

«حينما تُخضع الروح لهذا الموت الأعمق للنفس تدخل إلى سعة عظيمة من المعرفة والمحبة الروحيتين، وهي حالة من صلاة ودعاء يكادان لا ينقطعان، ومن محبة لا حدود لها نحو جميع الناس، من حنو وعطف غير منطوقين. من تفكير عميق وهادئ، ومن بساطة قصوى في العيش والمسلك، ومن رؤى عميقة في معرفة الله وفي الزمن الآتي.

«وفي هذه الحالة من الموت الكلي عن الذات، ينظر المؤمن بسهولة، بهدوء وعذوبة، إلى المعاناة والحزن والألم وشتى ضروب الكبح للشهوات. وتستعرض روحه بلا ندم وبخضوع وديع، كل ما مرت به من تجارب أليمة ومحن غامضة ومن دموع حارة، لأنها الآن ترى أن الله كان في كل خطوة على الطريق. وفي روح كهذه، يتدفق الروح القدوس بتيار من محيط حياته. فيجدر بروح هذا المؤمن، إذن، أن تراقب حركات الروح القدوس وتنبيهاته داخلها، وأن تتعاون

77) رو 5: 1-5

معه فورًا وتستجيب له بمحبة ومن غير تشكك. لقد وصلت هذه الروح أخيرًا، عن حق وبالفعل إلى موضع حيث لا شيء من الذات وكل شيء هو من الله.»

## تفسير لغز الألم

صحيح أن الإنسان المعافى السليم، غير المرضوض وغير المنكسر هو ليس ذا نفع كثير لله، لكنه تعالى مهتم بانكسار الإنسان، في الدرجة الأولى ليس بسبب قيمة الإنكسار الدنيوية، بل لأهميته في تعليم المؤمنين المحبة المضحية، وتدريبهم وتأهيلهم ليكونوا العروسة المصطفاة لعيسى المسيح. ومن هنا أن الله مستعد لأن يقضي في تعليم المؤمن وتدريبه سنوات طويلة قد تستغرق عمر المؤمن كله، وما من تفسير كوني آخر للغز الألم، الذي يقول بطرس أننا مدعوون إلى معاناته: «أَيُّهَا الْعَبِيدُ، اخْضَعُوا لأَسْيَادِكُمْ بِكُلِّ احْتِرَامٍ، سَوَاءٌ كَانُوا صَالِحِينَ وَلُطَفَاءَ أَوْ قُسَاةً. وَإِنْ كَانَ وَاحِدٌ يَحْتَمِلُ الأَلَمَ وَقَسْوَةَ الظُّلْمِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَهُوَ يَسْتَحِقُّ الْمَدِيحَ فِعْلا. إِنْ كُنْتُمْ تَرْتَكِبُونَ الْخَطَأَ، فَيَضْرِبُونَكُمْ وَتَحْتَمِلُونَ، فَأَيُّ أَجْرٍ لَكُمْ عَلَى هَذَا؟ أَمَّا إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ الْخَيْرَ، وَمَعَ ذَلِكَ تَتَأَلَّمُونَ وَتَحْتَمِلُونَ، فَأَنْتُمْ فِعْلا تَسْتَحِقُّونَ الْمَدِيحَ قُدَّامَ اللهِ، لأَنَّهُ دَعَاكُمْ لِهَذَا. فَإِنَّ الْمَسِيحَ تَأَلَّمَ مِنْ أَجْلِكُمْ وَتَرَكَ لَكُمْ مِثَالا لِكَيْ تَقْتَدُوا بِهِ.»[78]

كذلك قال بطرس: «يَا أَحِبَّائِي، لا تَتَعَجَّبُوا مِنْ هَذِهِ الْمِحْنَةِ الْقَاسِيَةِ الَّتِي تَمُرُّونَ بِهَا كَأَنَّهَا أَمْرٌ غَرِيبٌ أَصَابَكُمْ. بَلِ افْرَحُوا لأَنَّكُمْ تَتَأَلَّمُونَ كَمَا تَأَلَّمَ الْمَسِيحُ، لِكَيْ تَفْرَحُوا أَكْثَرَ جِدًّا عِنْدَمَا يَأْتِي فِي جَلالِهِ. إِنْ كَانُوا يَشْتِمُونَكُمْ مِنْ أَجْلِ اسْمِ الْمَسِيحِ فَهَنِيئًا لَكُمْ، لأَنَّ الرُّوحَ الْمَجِيدَ، أَيْ رُوحَ اللهِ، يَحِلُّ عَلَيْكُمْ.»[79] «وَبَعْدَ

78) 1بط 2: 18–21
79) 1بط 4: 12–14

أَنْ تَكُونُوا قَدْ تَأَلَّمْتُمْ فَتْرَةً قَصِيرَةً، فَإِنَّ اللهَ الَّذِي يُعْطِي كُلَّ نِعْمَةٍ، وَالَّذِي دَعَاكُمْ إِلَى جَلالِهِ الأَبَدِيِّ بِانْتِمَائِكُمْ لِلْمَسِيحِ، هُوَ نَفْسُهُ يُصْلِحُ أَحْوَالَكُمْ وَيُثَبِّتُكُمْ وَيُقَوِّيكُمْ وَيَسْنُدُكُمْ.»[80]

وقال بولس: «لِذَلِكَ نَفْتَخِرُ بِكُمْ بَيْنَ جَمَاعَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، لِثَبَاتِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ فِي كُلِّ الاضْطِهَادَاتِ وَالضِّيقَاتِ الَّتِي تَحْتَمِلُونَهَا. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ عَادِلٌ فِي قَضَائِهِ، وَقَصْدُهُ أَنْ تُعْتَبَرُوا أَهْلا لِمَمْلَكَتِهِ الَّتِي تَتَأَلَّمُونَ مِنْ أَجْلِهَا.»[81]

## التأهيل عبر الألم

قال بولس بوحي الله القدوس: «لأَنَّهُ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ، أُنْعِمَ عَلَيْكُمْ لا أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا أَنْ تَتَأَلَّمُوا فِي سَبِيلِهِ.»[82] أي إنه امتياز لنا أن نعاني من أجل المسيح، هذا إنعام منه تعالى علينا! ويصعب فهم هذا الأمر دون ربطه بقصد الله الأبدي لنا. فبينما يحمل الألم ثمارًا غنية في هذه الحياة، لا تظهر هذه الثمار للعيان دائمًا، بل تبدو في أغلب الأحيان غير كافية لأن تبرر الألم. وما دامت المعاناة في سبيل المسيح هي امتياز لنا، فيتحتم إذن أن تكون متعلقة بمستقبل الأمور. وإننا لنرى صحة قول بولس في ضوء القصد الذي يرمي إليه الله من حفظ مدرسة للمعاناة هنا، ألا وهو نضوج أبنائه تعالى في المحبة المضحية، لتأهيلهم للمُلك الأبدي.

قد يسهل على المؤمن أن يرتاب في أن ألمًا يعانيه الآن يمكن أن يؤهله لخدمة ذلك الغرض السامي. ربما أغرته طبيعة ألمه الحاضر بالشعور أنه ألم بلا جدوى.

---

80) 1بط 5: 10
81) 2 تس 1: 4–5
82) في 1: 29

بيد أن يومًا سيأتي حين يدرك فيه المؤمن أن الألم الذي ظنه غير مجد، هو عينه الألم الذي استعمله الله لتحقيق أهدافه المجيدة.

## الأحجار الملائمة في بيت الله

حين كان سليمان يُعِدُّ لبناء بيت الله، جرى قطع كل حجر في مقلع الحجارة بأدق المقاييس والمواصفات إلى درجة أنه وُضع تمامًا في المكان المحدد له من البناء «وَبُنِيَ الْبَيْتُ بِحِجَارَةٍ قَلَعَهَا الْعُمَّالُ وَأَعَدُّوهَا فِي الْمَحْجَرِ، فَلَمْ يَسْمَعْ أَحَدٌ صَوْتَ مِطرَقَةٍ وَلا إِزْمِيلٍ وَلا أَدَاةٍ مِنْ حَدِيدٍ عِنْدَ الْبَيْتِ وَقْتَ بِنَائِهِ.»[83]

وفي هذا المعرض قال أحدهم:

«كل المؤمنين الصادقين في كل العصور هم الحجارة الحية في بيت الله الحي، والله يُعِدُّهم في مقلع حجارته هنا، وسط ضجيج الأرض وجلبتها، ليوافق كل منهم مكانه في السماء. والحجارة في بدايتها خشنة ولا شكل معين لها، فلا عجب إذا سقطت عليها ضربات المطرقة ثقيلة، أو إذا كان الإزميل حادًا، أو إذا كان الصقل شاقًا، قبلما يتم تهيئتها للبناء.

«نحن الآن لسنا كما ينبغي أن نكون ولا كما سنكون، لكن الله لا يعمل بلا نموذج أو تصميم. إنه تعالت قدرته يعلم تمامًا ماذا يفعل.»

ولا يمكن لله أن يشكل «الأحجار الحية» من غير ألم. فالأدوات التي يستعملها في التشكيل والصقل أدوات حادة.

وإذا أصبح المؤمن أخيرًا مؤهلا لمكانه الفريد في بيت الله، فهل تكون أحزانه قد ضاعت هباء؟

---

83) 1مل 6: 7

# 9
# تعلم المحبة المضحية من خلال الأسرة

قد يعتقد المرء، من تفكيره السطحي، أن المكان المثالي لتنمية خُلق إلهي هو السماء، حيث لا معاناة ولا حزن ولا ألم ولا بكاء.[84] ولكن هذا الوضع يعني أيضًا استرخاء تامًا، فلا تجارب ولا اختبارات ولا عقبات. وبيئة كهذه ليست هي البيئة المثالية لانتاج خُلق سمائي. والسؤال الذي يرد إلى الذهن في هذا الصدد: ماذا يحدث للأطفال حين نرفع عنهم كل الضغوط؟ عندما نحميهم من جميع المصاعب والهموم ومعترضات الحياة؟ هل ينمون آنئذٍ أم يصيب نموهم الركود؟ بالطبع يركد نموهم.

كذلك السماء هي ليست مكانًا لتنمية أبناء الله إلى سن النضوج. إن نضوجهم يجب أن يتم هنا على الأرض، في ذات العالم الذي وضعهم الله فيه. الطفل المدلل هو طفل مرعب. ونحن نعلم أنه من المستحيل وجود صالح مدلل.

## النمو في السماء

هل يعني ذلك أنه لن يكون نمو في السماء؟ سيكون فيها نمو، من غير شك. ففي السماء سيحيا المؤمن في نظام جديد كليةً.[85] وقد تتوفر لديه حوافز

84) رؤ 21: 4
85) رؤ 21: 4–5

أخرى عديدة للنمو، سيكون أحدها الحمد والعبادة. ففي عبادة البارئ الأزلي وحمده، يمارس المؤمن أسمى وأقدس أبعاد الخُلق البشري.

## عمل يستغرق العمر

كما ذكرنا من قبل، إن الشخص يحصل على طهارة القلب، بفعل إيمان فوري، وذلك بعمل الروح القدوس.[86] ويستحيل نضوج المؤمن من غير طهارة قلبه. لكن، حتى وبطهارة القلب يكون النضوج عملية تتقدم على امتداد زمني يستغرق العمر كله ويتحتم أن يرافقها ألم وغم ومحنة. فليس من طريق مختصر إليها. ويُصرُّ بولس أنه برغم مضي سنوات عديدة على دخوله في الإيمان لم يكن قد بلغ ذروة النضوج.[87]

أذكر أني في صباي سمعت واعظًا يقول إن أزمة اختبار الصلاح والتكريس قد أنتجت صبرًا جاهزًا، مثل القهوة أو سواها من المشروبات والأطعمة الجاهزة. لكن كيف يتم إنتاج الأطعمة الجاهزة؟ طبعًا، بطهو مسبق يقتضي استخدام الحرارة أو الضغط أو كليهما. وينطبق هذا على الصبر أيضًا مع إدراكنا أن لا وجود لصبر جاهز، ويكتسب المرء المراحل المتقدمة من الصبر، وهو مظهر للمحبة المضحية، بأن يتحمل قلقًا بعد الآخر؛ لكن لا يوجد قلق في السماء، فلا بد من تعلمه على الأرض.

ومثله الغفران، الذي هو أيضًا من مظاهر المحبة المضحية. أفلا يتحتم على المرء أن يتعرض للأذى قبلما يستطيع أن يغفر؟ تتطور الدرجات العليا من المغفرة، إذن، بالتعرض للأذى مرة تلو المرة. ولا أذى في السماء، فيجب تعلم المغفرة على الأرض.

---

86) أع 15: 7–9
87) في 3: 12–14

من هنا أن الأرض وحدها توفر للإنسان أوضاعًا تؤدي به إلى القداسة الناضجة. وتصبح الحياة عليها مختبرًا يتحول فيه، عبر الحزن والألم وخيبة الأمل طوال عمره، إلى شبه نبيل للمسيح، إلى نضوج متقدم في التمثل بعيسى وفي المحبة المضحية.

## دور العائلة

العائلة هي المكان المنطقي لأن نبدأ فيها منهج تعلم المحبة المضحية. يقول باحث اجتماعي مؤمن: «الزواج والعائلة هما مركز الحياة كلها على الأرض. إنهما مختبر كامل يحتوي على جميع تجارب الحياة وإجهاداتها واختباراتها وأثقالها، تحت سقف واحد. كل ما نحتاجه لأن يتطور فينا شبه للمسيح إنما هو موجود في العائلة.» بمعنى آخر، إن العائلة هي عالم مصغر جدًا، صورة طبق الأصل عن العالم الكبير. وهذا هو أحد الأسباب في أن الله قضى بتأسيس العائلة «الْوَحِيدُ يُعْطِيهِ عَائِلَةً.»[88]

وما من رجل وامرأة يجدان نفسيهما في توافق كامل منذ اليوم الأول لزواجهما. فقط حينما يشرعان في هذا الإمتزاج الغامض بينهما عقب الزواج، يكتشف كل منهما في الآخر كثيرًا من الأمور التي لم يكن يعرفها فيه من قبل.

## وضع المتزوجين حديثًا

على الرغم من احتمال وجود استثناءات، فإن معظم المتزوجين حديثًا لم يتعلموا بعد معنى عدم الأنانية. قد يكون الزوجان مُؤمنَيْن بالمسيح وفيهما روح

88) مز 68: 6

الله القدوس، ومع ذلك ما زالت الأنانية متربعة على قلبيهما على غير وعي منهما. ولذلك فإن أحد أهم أهداف الله من فكرة الزواج وإنشاء البيت هو تحرير الزوجين من الذات وتعليمهما المحبة المضحية.

قليلون يدركون طبيعة الزواج والغرض منه. وكثيرون من الناس حين يبدأون في مواجهة المشاكل الزوجية، يشعرون أنهم اقترفوا خطأً فظيعا لأنهم تزوجوا من شخص غير مناسب! وعلى هذا تكون خطوتهم التالية أن يحاولوا الهروب منه بطريقة أو بأخرى، أحيانًا بطلب النصيحة من مستشار زواج وأحيانا باللجوء إلى الطلاق.

## مشكلة روحية

لا ريب في أن أصل مختلف النزاعات في العائلة – باستثناء حالات معينة – هو روحي وليس عقليًا. وعلم النفس والطب النفسي عادة لا صلة لهما البتة بهذا الموضوع. فللمشكلة الروحية دائمًا سبب روحي يستدعي حلًا روحيًا. إن منشأ هذه النزاعات، ما عدا في حالات عضوية، يتمثل في عوارض تتضخم معها الأنانية ويتناقص الحب أو يتلاشى. والمخرج من هذه المشكلة الروحية ليس الطلاق ولا الانفصال، إنما اتباع خطة الله التي هي ممارسة المحبة المضحية.

إن العداوة تجاه شريك الحياة أو شريكتها هي أولًا عداوة تجاه الله. وانعدام الحب نحو الشريك أو الشريكة هو حقًا انعدام للمحبة نحو الله. «يا أحبائي، يجب أن نحب بعضنا بعضًا لأن المحبة تأتي من الله. وكل من يحب هو ابن لله ويعرف الله. ومن لا يحب فلا يعرف الله. لأن الله محبة... ولا واحد رأى الله أبدًا. لكن إن كنا نحب بعضنا بعضًا، يثبت الله فينا، ومحبته تظهر فينا بصورة

كاملة. «مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ، بَيْنَمَا هُوَ يَكْرَهُ أَخَاهُ، فَهُوَ كَذَّابٌ. لأَنَّ مَنْ لا يُحِبُّ أَخَاهُ الَّذِي يَرَاهُ، لا يَقْدِرُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ الَّذِي لا يَرَاهُ.»[89]

## حق التنازل عن حقي

عندما يُقَوِّم واحد من شريكَي الزواج، على الأقل، علاقاته مع الله، فلن يعود يصرُّ بعناد على حقوقه أو يَفرِض أراءه على الشريك الآخر. وثمة قول مفاده أن الحق الوحيد الذي يملكه المؤمن بعيسى هو حقه في أن يتخلى عن حقوقه. ويتفق هذا القول مع خطبة عيسى المسيح على الجبل (مت ف5 ؛ 6). إن الشريك الأقرب إلى الله يكون دائمًا البادئ في التنازل والرضوخ واتِّباع اللين. ستمكنه محبة الله من أن يقبل التضحية وإنكار الذات وصلب النفس.

## توبة ورجوع

إن التوبة إلى الله عن كل ما سبق من انعدام المحبة، تُساعد الشريكين أن يعود أحدهما إلى الآخر، وتضمن لهما النمو في المحبة التي هيأها الله لهما.

ويقدم لنا بولس وصايا هامة في هذا الشأن حيث يقول: «اِخْضَعُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ لأَنَّكُمْ تَتَّقُونَ الْمَسِيحَ. أَيَّتُهَا الزَّوْجَاتُ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْكُنَّ يَجِبُ أَنْ تَخْضَعَ لِزَوْجِهَا كَمَا لِلْمَسِيحِ. لأَنَّ الزَّوْجَ هُوَ رَأْسُ زَوْجَتِهِ، كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ رَأْسُ أُمَّتِهِ، الَّتِي هِيَ جِسْمُهُ وَهُوَ مُنْقِذُهَا.»[90]

كذلك يؤكد بطرس هذا المبدأ فيقول: «وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الشُّبَّانُ، اِخْضَعُوا

89) 1يو 4: 7–8، 12، 20
90) أف 5: 21–23

لِلشُّيُوخِ. كُونُوا جَمِيعًا مُتَوَاضِعِينَ بَعْضُكُمْ مَعَ بَعْضٍ. فَكَمَا يَقُولُ الْكِتَابُ: «يَقِفُ اللهُ ضِدَّ الْمُتَكَبِّرِينَ، لَكِنَّهُ يُنْعِمُ عَلَى الْمُتَوَاضِعِينَ.» إِذَنْ تَوَاضَعُوا تَحْتَ يَدِ اللهِ الْقَدِيرَةِ لِكَيْ يَرْفَعَكُمْ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ.»[91]

وانعدام الاستعداد لتقبل مبادئ الخضوع هذه، سيؤدي فقط إلى إزدياد الألم وإلى إضاعة الأحزان سدى.

إذا قَبِلَ الزوجان أحدهما الآخر كوكيل الله للتقويم والتأديب والإصلاح من أجل الحصول على الحرية من الذات والنمو في المحبة المضحية، فسيجدان كلاهما سعادة أكبر في هذه الدنيا وسيحققان جلالًا أبديًا أعظم في الآخرة.

## لا ملجأ سواه

إن اللجوء إلى أطباء النفس وعلمائها لحل مشكلة روحية هو أمر لا طائل منه. ومن المحزن أن نرى بعض المؤمنين ينبذون ما علمتهم إياه كلمة الله عن الشفاء الروحي.

يكفينا أن نذكر دائمًا دعوة عيسى المسيح لنا: «تَعَالَوْا لِي يَا كُلَّ التَّعْبَانِينَ وَالَّذِينَ أَحْمَالُهُمْ ثَقِيلَةٌ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ.»[92]

## صدمة أخلاقية

نعيد التأكيد على أن السبب الرئيسي لكل ما يهدد البيت أو الزواج بالإنهيار هو سبب روحي. فالسبيل إذن إلى مجابهة هذا التهديد ينبغي أن يكون سبيلًا روحيًا.

---

91) 1بط 5: 5–6

92) مت 11: 28

إن عالمنا اليوم تائه في بحر الشك وعدم اليقين. ومجتمعاتنا تعاني من صدمة أخلاقية. فالنظام الاجتماعي في تحلل، والفوضى الجنسية تسود. وليس هذا الوضع إلا دليلًا على غزو لمجتمعاتنا من عناصر شيطانية تستبد بها الشهوات، وتعمل على تدمير مؤسسة الزواج والبيت والأسرة.

لكن الله تعالى قادر على أن يستخدم هذا الوضع ذاته ليطور المحبة المضحية في المؤمنين حقًا بعيسى المسيح.

## هوة الأجيال

هناك اليوم ما يدعى بهوة الأجيال، إلا أن الأمر قديم قِدم آدم وابنه قابيل، ونوح وابنه حام. وقد زادت مدرسة فرويد النفسانية من ضخامة وسوء الصدع بين الآباء والأبناء. وكانت النتيجة نفور الأبناء ورفضهم للمثل الأخلاقية والروحية، مما أدى إلى معاناة معذّبة للآباء. وهذه مشكلة عامة واسعة. ولا يخفف من الغم إقرارنا بأنه ما من أب كامل، وبالتالي فهو مسؤول جزئيًا عن جموح أبنائه.

إن الجحود البنوي يُحدث جروحًا في نفس كل من الوالدين، وتزيدهما ألمًا تأثيرات وعواقب ذلك الجموح في الابن نفسه، الذي هو عندهما أعزّ من الحياة. ولكن حتى هذا الحزن المدمّر يمكن أن يتحول، كما يقول الكتاب، إلى جلال أبدي إستثنائي، إذا أتيح له أن ينتج في الوالدين، أو في أحدهما، بُعدًا أعمق للمحبة المضحية الفادية. قد يكتشف الوالد أنانية فيه لم يكن واعيًا لها، فبتوبته توبة نصوحًا وبإنكاره لذاته، ينمو في المحبة المضحية، التي تشفي الروح والنفس، وتملأ القلب بالرضى والقناعة.

# 10

# تعلم المحبة المضحية من خلال معاناة جائرة

السؤال هنا هو: كيف تتحول «الضيقات البسيطة»، والتي تبدو لا نهاية لها وغير محتملة، إلى جلال أعظم وأعلى درجة؟

يمكن أن تعمل آلام المرء لصالحه إذا هو فقط ملَكَ موقفًا ذاتيًا صحيحًا. وإنه أمر غامض للكثيرين كيف يستطيع موقف ذاتي غير موضوعي من حالة موضوعية أن يعدّل تأثيرها إلى حد أن يتحول الشر الخالص إلى بعد نبيل للخير.

## رد فعل الإنسان

تأمل في القول التالي: ما من شيء من أي مصدر أتى، يمكنه أن يؤذي إنسانًا، إلا إذا سبب للإنسان أن يتخذ منه موقفًا خاطئًا. إن استجابة المرء هي التي تحفظه أو تتلفه، تسعده أو تشقيه. وقالت كاتبة مؤمنة معروفة، إن الجوهر الأبدي لشيء ما ليس هو في الشيء ذاته بل في رد فعل الإنسان له. فالوضع المحزن سيمر ويزول، لكن رد فعل الإنسان له سيترك في شخصيته رواسب أبدية، أخلاقية وروحية.

على هذا الأساس، فإن كل الأحداث التي يسمح الله بوقوعها في حياة مؤمن لا بد أن تعمل لخير هذا المؤمن، ما لم يدعها تفصل بينه وبين الله. وما

أصدق قول أحدهم: «إن الفاجعة الوحيدة في الحياة هي أن يفقد الإنسان إيمانه بالله.»

لا يستطيع المرء أن يسيطر على الظروف والأوضاع التي تواجهه، لكنه بعون من الله يقدر أن يسيطر على رد فعله تجاهها، أي على موقفه الذاتي منها. إذا سمح المرء لنفسه، بسبب شر وقع له، أن يتردى في موقف من رثاء النفس والحبوط والتمرد ضد الناس والله، فسيتدهور خلقه وستضيع أحزانه سدى. ولكن الأمر سيختلف معه تمامًا إن هو اتبع نصيحة يعقوب: «يَا اِخْوَتِي اِعْتَبِرُوا أَنْفُسَكُمْ سُعَدَاءَ عِنْدَمَا تَحِلُّ بِكُمْ مُخْتَلِفُ أَنْوَاعِ الْمِحَنِ. لأَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ امْتِحَانَ إِيمَانِكُمْ يُنْتِجُ فِيكُمُ صَبْرًا. فَاجْعَلُوا الصَّبْرَ يَنْمُو فِيكُمْ إِلَى الْكَمَالِ، لِكَيْ تَكُونُوا كَامِلِينَ وَتَامِّينَ وَغَيْرَ نَاقِصِينَ فِي شَيْءٍ.»[93] وهذا يتفق مع قول بولس، «بَلْ نَفْرَحُ حَتَّى فِي الضِّيقَاتِ، لأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ الضِّيقَ يُعَلِّمُنَا الصَّبْرَ، وَالصَّبْرُ يُؤَهِّلُنَا لِلانْتِصَارِ فِي الْمِحَنِ، وَالانْتِصَارُ يَبْعَثُ فِينَا الأَمَلَ، وَالأَمَلُ لا يَخِيبُ، لأَنَّ اللهَ أَفَاضَ مَحَبَّتَهُ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُّوسِ الَّذِي أَعْطَاهُ لَنَا.»[94] إن النتيجة النهائية للفرح في الشدائد طبقًا لهذه الآيات الكريمة هي انسكاب المحبة المضحية في القلب. وهذا ربحٌ عظيم.

## مبارك هو الألم

إذا كان الله لا يطوّر بغير ألم، نوعية الخُلق التي هي ضرورية للحكم في الدهور القادمة، أفلا ينبغي أن يكون موقف المؤمن متمثلًا في القول: «مبارك هو الألم»؟ إن مرتبة المؤمن في السماء لن تحددها شخصيته الآسرة، أو مواهبه

93) يع 1: 2–4
94) رو 5: 3–5

المتقدة، أو شموخه الفكري أو أية عطايا أخرى مشتهاة، وإنما سيقررها عمق المحبة فيه ونوعيتها. ولا يمكن تطوير هذه المحبة إلا في مدرسة الألم. وقبلما فعل الألم فعله المبارك فينا، كنا قساة، غلاظًا، مغرورين، مستبدين، غير لبقين، قليلي الصبر، وبخلاء. لَكَم قسونا على الآخرين و لم نراع مشاعرهم وآراءهم وحساسياتهم! تلك صفات الأنانية، وهي بالمعاناة وحدها، تتغير وتنقلب إلى خصائل عذبة وسجايا كريمة. وفي هذه المعاناة يأخذ الله الكثيرين منا عبر نار مطهرة، ويعرضنا لصدمات صعبة، ويفرغنا من أنفسنا كلية، لكي نصبح مرضوضين ومنكسرين ومنسحقين.

ليتني أكون لا شيء، لا شيء أبدا، فقط لأنطرح عند قدميه، كمركب محطم خال من كل شيء، معد لخدمة الله.

## تحرير أيوب من الذات

قبلما عانى أيوب عرف الله بالسمعة فقط، أي سمع عنه فقط، فقال، «مِنْ قَبْلُ سَمِعْتُ عَنْكَ بِأُذُنِي.»[95] ولكن بعد معاناته المشهورة قال، «وَالآنَ شَاهَدَتْكَ عَيْنِي.»[96] فماذا كانت النتيجة؟ لقد توصل هذا الرجل الشهم إلى حقيقة خطيرة، فقال، «لِذَلِكَ أَحْتَقِرُ نَفْسِي، وَأَتُوبُ وَأَجْلِسُ فِي التُّرَابِ وَالرَّمَادِ.»[97]

إن تجربة أيوب هي مثل يوضح قصد بطرس حين قال، «مَنْ يَتَأَلَّمُ فِي جِسْمِهِ، يَكُونُ قَاطَعَ الْخَطِيَّةَ.»[98]

---

95) أي 42: 5
96) أي 42: 5
97) أي 42: 6
98) 1بط 4: 1

لقد شهد الله بأن أيوب كان رجلًا طاهرًا، إلا أن سمات من الأنانية كانت ما تزال لديه، و لم يكن أيوب في البدء مدركًا لها. وكان الألم هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها كشف تلك السمات والقضاء عليها.

فمن ابتلاء أيوب الطويل بآلام مبرحة، نتج بُعدٌ جديد من المحبة المضحية. والبرهان على ذلك أن أيوب كان راغبًا في أن يصلي ويدعو من أجل منتقديه القساة فنجوا من حكم الله عليهم. إن قبول الانتقاد برضى ومن غير امتعاض وانتقام، هو دليل على النمو في المحبة. وكان هذا أحد الدوافع لوصية عيسى المسيح لنا: « أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، »[99] لأن الأعداء يوفرون للمؤمن فرصة النمو في المحبة المضحية.

## مدعوون إلى معاناة جائرة

ما من شيء، حتى أسوأ شيء، يحدث عرضًا أو صدفة لأبناء الله. بل كل ما يحدث في حياتهم من امتحانات واختبارات، القصد منها توفير المجال لهم لكي يتعلموا المحبة المضحية. إن هذه هي وسيلة الله لتمكيننا من رفع مرتبتنا الأبدية.[100]

ألا يفسر ذلك أيضًا لِمَ يسمح الله بالاضطهادات والمظالم والحسرات في حياة المؤمنين في كل مكان؟ «لأَنَّهُ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ، أُنْعِمَ عَلَيْكُمْ لا أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا أَنْ تَتَأَلَّمُوا فِي سَبِيلِهِ.»[101]

---

99) مت 5: 44–48
100) 1بط 2: 18–21
101) في 1: 29

## الشدة ثقة

من العسير أن ينال أحد أذى من الآخرين، وأن يعاني بجور من غير أن يستاء ويشعر بالمرارة. لكن الشدة هي ثقة ورجاء، وتجعلنا نستمع لقول بطرس: «فَافْرَحُوا لِهَذَا، مَعَ أَنَّهُ لابُدَّ الآنَ أَنْ تَحْزَنُوا فَتْرَةً قَصِيرَةً بِسَبَبِ كُلِّ الْمِحَنِ الَّتِي تُصِيبُكُمْ. لأَنَّ الْقَصْدَ مِنْ هَذِهِ الْمِحَنِ هُوَ أَنَّهَا تُبَيِّنُ أَنَّ إِيمَانَكُمْ حَقِيقِيٌّ. فَكَمَا أَنَّ النَّارَ تَخْتَبِرُ الذَّهَبَ، فَإِنَّ الْمِحَنَ تَخْتَبِرُ إِيمَانَكُمُ الَّذِي هُوَ أَثْمَنُ بِكَثِيرٍ مِنَ الذَّهَبِ الْفَانِي. فَتَنَالُونَ الْمَدِيحَ وَالْجَلالَ وَالْكَرَامَةَ عِنْدَمَا يَأْتِي عِيسَى الْمَسِيحُ مِنَ السَّمَاءِ.»[102]

## عمل اللّه البطيء

يقص كاتب حكاية أم شابة اختطف الموت ولديها الصغيرين من بين ذراعيها. انهارت الأم تحت وطأة الحزن، وذات يوم صرخت قائلة وسط دموعها: «إني لا أرى لماذا خلقني الله!» وسمعتها عمتها التي كانت تُعنى بها، وكانت أوسع دراية بسبل الله، فقالت لها: «يا عزيزتي، لم يتم الله بعد عمله فيكِ. إنه الآن آخذ في صنعك وتنشئتك.»

## هذا ليس عالم الشيطان

في عبارات بليغة، كتب مؤمن يقول:

«ليس هذا عالم الصدفة. لا وجود للصدفة في أي مكان. هذا ليس عالم الشيطان. فالكون بأسره هو تحت سلطان أبينا السمائي. وفي يده القديرة كل

102) 1بط 1:6-7

شؤون الأرض. وكما قال المسيح عيسى، ’أَبِي لا يَتَوَقَّفُ عَنِ الْعَمَلِ أَبَدًا، وَأَنَا أَعْمَلُ مِثْلَهُ.‘[103] وفي كل ما يأذن به، من فرح وحزن، نجاح وفشل، أمل وخوف، لذة وألم، إنما هو يصنعنا ويدربنا وينمينا.

«ولكن الله لا يصنعنا جميعنا فورًا فهذا الصنع طويل الزمن، يمتد عبر سني حياتنا كلها، مهما بلغ عدد هذه السنين. يبدأ الله في صنعنا حينما نولد في هذه الدنيا، ويستمر فيه بلا انقطاع حتى آخر يوم لنا فيها. لا تمضي ساعة واحدة لا تضاف فيها لمسة جديدة لحياتنا، وخط جديد لخُلقنا. الله في الحقل، دائمًا، يبذر، ويسقي، ويتعهد كل تجارب أعمارنا. ما من شيء واحد يأتي إلينا بالصدفة من العناية الإلهية.»

من المهم أن نتذكر أن إبليس هو كائن مخلوق. إنه ليس رب الكون. وأية سلطة كان قد اكتسبها بسقوط آدم، فقدها لما صُلب المسيح. قال المسيح، «كُلُّ سُلْطَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعْطِيَتْ لِي.»[104] واستنادًا إلى انتصاره على الصليب، فوّض حواريه وأتباعه بتلك السلطة. وإلى أن يُحجز إبليس نهائيًا،[105] وتقام وليمة عرس عقب ذلك، فإن الله يستخدم الشيطان لأهدافه هو تعالى في تعليم العروسة، جماعة المؤمنين، وسيلة النصر وبُعدًا أعمق من المحبة المضحية.

103) يو 5: 17
104) مت 28: 18
105) رؤ 20: 10

# 11

# تعلم المحبة المضحية من خلال اخفاقات الحياة

سيعمل الله كل شيء حتى يصنع ويُكَمِّل مؤمنًا في المحبة المضحية. وهو تعالى لا يعتبر أي ثمن غاليًا، لأنه يعلم الجلال الذي سيلي.

عندما يريد الله أن يدرب رجلًا،
أن يثيره، أن يجعله ماهرًا،
ليضطلع بالدور الأنبل،
عندما يتوق الله بكل قلبه،
إلى أن يصنع الرجل عظيمًا جسورًا،
ويمسي العالم كله مذهولًا.
عند ذاك، انظر إلى طرقه!
كيف يصوغ، بقسوة، إلى الكمال
مَن للمُلك الأبدي يختاره،
كيف يؤلمه، بالمطرقة يدقه،
وبنفخات هائلة يحوله
إلى أشكال تجربة من الطين
وحده تعالى يعلم ما هي.

الرجل المعذب يبكي قلبه
وفي تضرع ترتفع يداه،
لكنه ينحني، وأبدًا لا ينكسر،
والصانع قد تعهد خيره،
هكذا يستخدم الله من يختاره.

## في الحياة الدنيا

وُضعت كتب وفيرة العدد عن قيمة الشدائد والأحزان في بناء الخُلق وتشكيل نمط للحياة جدير بالتقدير. ومن أجمل التعبيرات التي وردت في بعض تلك الكتب هذه الأقوال التالية:

- إننا لا نعلم كم ندين للمعاناة. بيد أننا نعلم أن كثيرًا من أغنى النعم التي تلقيناها من الماضي هي ثمار للحزن والألم.
- أعظم بركات العالم جاءت من أبلغ أحزانه. وقال الشاعر غوته ذات مرة: «ما من حزن واحد مرّ بي دون أن أحوّله إلى قصيدة.» ومن المحتمل أن أفضل الموسيقى والشعر في جميع الآداب، له أصل مماثل. ما من شيء حري بالإعتبار حقًا يأتي بغير ألم وبدون ثمن.

وثمار الحزن والألم في هذه الحياة هي شيء يسير جدًا من ثمارهما في الجلال الأبدي.

## درس في الكون

نحن لا نعلم طبيعة المشروع الأبدي لله تعالى، ولكننا نعلم أنه مشروع لا تقاس عظمته. «فنحن نتحدث عن أمور يقول عنها الكتاب: «أَشْيَاءُ لَمْ

تُشَاهِدْهَا عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ بِهَا أُذُنٌ، وَلا يَتَصَوَّرُهَا عَقْلُ إِنْسَانٍ، هِيَ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ.»[106]

ونعلم أيضًا أن جماعة المؤمنين بعيسى تشكل العامل المركزي، والشخصية الرئيسية، والخلُق الأرفع في الملك الأبدي. «وَقَصْدُهُ مِنْ هَذَا هُوَ أَنَّهُ عَنْ طَرِيقِ أُمَّةِ الْمَسِيحِ، يُمْكِنُ الآنَ لِلْحُكَّامِ وَالْقَادَةِ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ، أَنْ يَعْرِفُوا حِكْمَةَ اللهِ الْمُتَعَدِّدَةَ الأَشْكَالِ.»[107]

ما هو محتوى «حكمة الله المتعددة الأشكال»؟ بما أن المحبة هي قانون الكون، وبما أن المؤمنين بعيسى هم في مدرسة المعاناة ليتعلموا المحبة، فيجب أن تتألف تلك الحكمة من بُعد هام للمحبة المضحية.

لا ريب في أن الله يبذل جهودًا فائقة لتعليم المؤمنين بعيسى أبعادًا عميقة في المحبة المضحية، لسبب رئيسي هو أن الله يعتزم أن يستخدم هؤلاء المؤمنين، عروسة المسيح، في الأبدية ليعبّر عن طبيعته التي هي محبة، لرؤساء الملائكة وقادتهم، ولجميع الكائنات العاقلة في الكون. لا بد إذن أن الملائكة تخفى عنهم بعض الأمور المتعلقة بمحبة الله وخطته للنجاة. ومن الجلي أن الله يعتزم أن يستخدم المؤمنين لتعليم وتنوير قاطني مملكته السمائية الدائمة التوسع. الحمد لله.

## المؤمنون هم المحور

«الْمَسِيحُ هُوَ التَّعْبِيرُ الصَّادِقُ عَنْ طَبِيعَةِ اللهِ الَّذِي لا يُرَى، هُوَ الأَوَّلُ فَوْقَ كُلِّ الْخَلِيقَةِ. لأَنَّ اللهَ خَلَقَ بِوَاسِطَتِهِ كُلَّ مَا فِي السَّمَاءِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا

106) 1كور 2: 9
107) أف 3: 10

يُرَى، وَأَيْضًا مَا لا يُرَى فِي عَالَمِ الأَرْوَاحِ مِنْ مُلُوكٍ وَسَادَةٍ وَحُكَّامٍ وَقَادَةٍ. كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ بِوَاسِطَتِهِ وَلَهُ. فَهُوَ مَوْجُودٌ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ الْكَوْنِ يَتَمَاسَكُ مَعًا بِوَاسِطَتِهِ. وَهُوَ الرَّأْسُ وَأُمَّتُهُ هِيَ الْجِسْمُ. هُوَ الْبِدَايَةُ وَأَوَّلُ مَنْ قَامَ مِنَ الْمَوْتِ، لِكَيْ يَكُونَ هُوَ السَّيِّدَ فِي كُلِّ شَيْءٍ.»[108] الجملة الأخيرة هي بيت القصيد وتعززها آيتان أخريتان، «فَأَخْضَعَ اللهُ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيِّ الْمَسِيحِ، وَأَعْطَاهُ لِأُمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ سَيِّدًا عَلَى الْكُلِّ.»[109]

يتضح لنا، من هذه الآيات وسواها، أن المشروع الإلهي كله يدور حول محور المؤمنين بعيسى، هؤلاء هم أمة المسيح. فكر في ذلك، المؤمنون بعيسى هم أدنى إلى مركز قوة العالم من جميع النظام الهائل الحاضر والمقبل من العروش والرؤساء والقادة والسلطات في الكون.[110] في الحقيقة إن المؤمنين بعيسى هم على شدة الدنو من السلطة الأعلى بحيث أنهم يكوّنون جزءًا منها كجسم المسيح، وسيجلسون على العرش معه. لذا، سيذهب الله إلى أي حد ضروري ليُعد المؤمنين لمراكزهم الجليلة.

## نجاح الفشل

وقد تكون معاناة الفشل هي ذلك الحد. فأحيانًا لا يمكن تحرير المؤمن من الذات إلا بمعاناة للفشل. فهو حين يعاني من شدة، أو فاجعة، أو كارثة، قد يسلك السبيل الوحيد الذي سيؤدي به إلى أن يكون حليمًا، شفوقًا، ومنكرًا للذات. وقد يصاب بمرض ثم تعقبه نكبة في ماله أو سمعته، أو فاجعة شخصية.

108) كو 1: 15–18
109) أف 1: 22–23
110) 1كور 3: 21–23

وإن كان الفشل أفضل من النجاح في إعداد مؤمن للملك الأبدي، فستكون محبة الله لهذا المؤمن أكبر من أن تحميه من الفشل على حساب الجلال الذي سيناله في الأبدية.

«وَبِفَضْلِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيَّ، أَنَا وَضَعْتُ الأَسَاسَ مِثْلَ مُهَنْدِسٍ خَبِيرٍ، وَآخَرُ يَبْنِي عَلَى هَذَا الأَسَاسِ. فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَنْتَبِهَ كَيْفَ يَبْنِي. لا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَضَعَ أَسَاسًا غَيْرَ الأَسَاسِ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ، أَيْ عِيسَى الْمَسِيحِ. فَإِنْ كَانَ وَاحِدٌ يَبْنِي عَلَى هَذَا الأَسَاسِ بِنَاءً مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ، أَوْ مِنْ خَشَبٍ وَقَشٍّ وَتِبْنٍ، فَسَيَظْهَرُ عَمَلُهُ. لأَنَّ يَوْمَ الدِّينِ يُبَيِّنُهُ. فَإِنَّ النَّارَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَكْشِفُهُ، وَتُبَيِّنُ قِيمَةَ عَمَلِ كُلِّ وَاحِدٍ. فَمَنْ يَبْقَى عَمَلُهُ الَّذِي بَنَاهُ، يَنَالُ أَجْرًا. وَمَنْ يَحْتَرِقُ عَمَلُهُ، يَخْسَرُ الأَجْرَ. هُوَ نَفْسُهُ يَنْجُو، لَكِنَّهُ يَكُونُ كَوَاحِدٍ هَرَبَ مِنْ وَسَطِ حَرِيقٍ.»[111]

في يومنا هذا، ليس العالم الزمني وحده يعبد النجاح، بل بعض المؤمنين أيضًا يذنبون بتلك العبادة، ولن يروا ذنبهم إلا بعدما يسحقهم الله، ويحررهم من وهم النجاح، ويطهر دوافعهم، وينضجهم في المحبة المضحية.

## علاقة الحياة بالمحبة

إن المرء الذي أصاب نجاحًا مرموقًا مذهلًا ولكنه بلغ نهاية الحياة من غير أن يتعلم المحبة هو امرؤ فاشل تمامًا.

الحياة هي لتعلم المحبة، وليست للملذات الحسية، ولا لجمع الثروات، ولا لنيل الشهرة، ولا لبناء إمبراطوريات صناعية أو تجارية أو عسكرية، ولا للظفر

111) 1كور 3: 10–15

بسلطة سياسية. الحياة ليست للرحلات أو الاكتشافات أو لغزو الفضاء. إنها ليست لدراسة العلم والتاريخ والاقتصاد والفلسفة أو حتى الدين، وليست لإلقاء مواعظ بليغة أو إشادة دور عبادة ومستشفيات ومدارس وجامعات، أو لنشر كتب ومجلات.

تلك جميعها تكون ذات فائدة، فقط إن هي ساهمت في تعلم المحبة أو في التعبير عنها.

وعندما يتعلم الإنسان المحبة، يكون قد نجح في حياته بغض النظر عن فشله بحسب المقاييس الأخرى.

فالنجاح على حساب المحبة هو فشل، والكسب على حساب المحبة هو خسارة. أما الفشل الذي يقودني إلى المحبة فهو نجاح، والخسارة التي تقودني إلى المحبة فهي ربح.

# 12
# تعلم المحبة المضحية عبر الشيخوخة

يرمي الله فيما يرمي إليه من شيخوخة الإنسان أن يمكنه من مراجعة نظام القيم التي عاش معها عمرًا طويلًا.

ما أكبر الفرق بين أولويات الشباب واهتمامات الشيخوخة! إن الذات في سن الشباب هي المركز، وحولها تدور أهداف النجاح والسلطة والشهرة والمكانة والثروة والمهارة والراحة، واللذة.

وقصد الله من تقلبات الحياة وخيباتها وأحزانها ومن عجز السنين المتقدمة، أن تغير مما عنته سن الشباب.

## المدرسة الختامية

والتقدم في السن لا يعني تقدمًا نحو الأفضل، إلا إذا أدى إلى التحرر من حب النفس.

قصد الخالق من تقدم العمر أن يصبح الإنسان أكثر لطافة وتعاطفًا ورأفةً، ومراعاة للآخرين، وأقل سخافة وتطلبًا.

وقال أحدهم: «تنمو الثمار وتنضج بفعل الطقس والمناخ، في الفصول المختلفة جميعها. فالشتاء يؤدي دوره، كما يفعل الربيع والصيف والخريف.

كذلك الليل والنهار، وسحابة المطر وضوء الشمس، البرد والحرارة، كلها تعمل سوية لتنضج الثمار.

«وعلى المنوال ذاته، تعمل تجارب الحياة المختلفة خلال مراحلها جميعًا، على إنضاج الخُلق وتطوير المحبة المضحية لدى الإنسان المؤمن.»

فالشيخوخة إذن هي المدرسة الختامية التي تسبق دخول المؤمن المعمّر إلى الأبدية.

## شيخوخة منتجة

الشيخوخة أيضًا فترة انحطاط جسماني، لكنها قد تكون روحيًا أوفر مراحل الحياة إنتاجًا، من خلال الصلاة والدعاء إلى الله. «الصلاة هي أهم ما يمكن لأي امرئ أن يفعله لله وللإنسان.»

بوسع الشيوخ والمتقاعدين عن العمل أن يكونوا أعظم قوة متاحة لله كي يستخدمها في التأثير على شؤون العالم وفي نجاة النفوس، إذ لديهم الآن الوقت الكافي لمزيد من الصلوات والأدعية.

## قوة الصلاة

إن أبشع أنواع الشر في العالم تنتج جميعًا عن نشاط الشياطين. والقوة الوحيدة التي يمكنها أن تكبح تلك الشرور وتسيطر عليها هي قوة الروح القدوس. ولقد شاء الروح القدوس أن ينطلق إلى عمله فقط استجابة لصلوات وأدعية أناس مؤمنين أتقياء.[112] لذلك قال حجة في الإيمان» «لن يفعل الله شيئًا إلا إجابة لدعاء.»

---

112) مت 16: 18–19

في سجل السماء الإنسان الصالح التقي الذي لا اسم له، المقيم في أقصى الأرض وأشدها انعزالًا، محجوبًا عن الأبصار تمامًا، هو مهم أهمية القائد الروحي الذي يملك أعظم المواهب ويجتذب الأبصار والأسماع، ولذلك فهذا التقي غير المعروف، ما دام مؤمنًا له ما للقائد الكبير من ثواب عظيم.

## على الخط الأمامي

لا يحتاج المؤمن أبدًا أن يتقاعد، ولا ضرورة لأن تكون فترة ما في حياته بلا ثمر. فبإمكانه، بواسطة الشفاعة وبالدعاء والصلاة، أن يكون على الخط الأمامي حتى ولو في كرسي المقعدين أو على فراش المرض، مثله مثل القادرين على العمل. إن المواظبة على الدعاء والصلاة تتطلب تطويرًا للخُلق أكثر مما يتطلبه إلقاء موعظة أو أداء أغنية دينية.

«الصَّالِحُ يَزْهُو كَالنَّخْلَةِ، وَكَأَرْزٍ لُبْنَانَ يَنْمُو. الْمَغْرُوسُونَ فِي بَيْتِ اللهِ يُزْهِرُونَ فِي دِيَارِ رَبِّنَا. يُثْمِرُونَ حَتَّى فِي الشَّيْبِ، وَيَظَلُّونَ فِي صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ وَحَيَوِيَّةٍ.»[113]

تذكر أنك متجه إلى العرش الأبدي! إن الله يتولى تدريبك. وليست تجاربك واختباراتك صدفة. فما من معاناة تخلو من هدف. إن مكسبك الأبدي على مرمى البصر.

**إذن استفد من أحزانك ولا تُضَيِّعْها بلا فائدة!**

113) مز 92: 12–14